عن

نباتات الأسفلت

نفسها

" أحكي لكم"

"أحداث لم تذكرها كتب التاريخ و الجغرافيا"

قصص ل..

أحمد ثروت الجابري

عن الشتاء و الصباحات الأخيرة ؛

أُغنّي أنا .....

1- وقائع قصيرة من الشارع الطويل

2- الخروج

3- العودة

4- اختيار

5- المرشح

هذا الشارع طويل جداً و كلّه انحناءات ؛ لكنك لن تعرف هذا إلاّ إذا نظرت من عمارة " المكّاوي" ؛ و تحديداً من خلف سور السطح الواسع ؛ فلو كنت في بداية الشارع من ناحية ميدان " الخليفة " لن ترى أكثر من مدق ترابي ينتهي عند مقلة " الصعيدي" القديمة ، أمّا لو كنت في أول الشارع من ناحية ميدان " العلايلي" فستمتد عيناك لمترين فقط ، ثم تتوقف عند انحناءة مفاجئة يتصّدرها محل ضخم مزخرف بمصابيح بيضاء طويلة و تعلوها لافتة محفور عليها بخط النسخ "مقلة الصعايدة الكبرى " و لن تندهش طويلاً إذا شاهدت سيارة نصف نقل و أجولة كثيرة ، و حوالي عشرين رجلاً يرتدون الجلابيب الواسعة الأكمام .

هؤلاء كانوا أمام المقلة تماماً . كان الوحيد الذي ينتعل حذاءً فيهم هو " رزق" ، ثانياً كُمّي ثوبه حتى أعلى كتفيه و هو يُسقط الجوال تلو الآخر أمام مكتب " الحاج " .

لم يكن مسموحاً لأحد أن يقترب من المكتب ؛ لكّن " رزق" كان يجلس على الكرسي و أحياناً كان يفتح الدرج أو يغلقه ؛ و درج المكتب هو مكمن هواية "الحاج " في فرد أوراق النقود و رَصّها فوق بعضها ، أمّا بقية أبنائه ، فكانوا يضعون حصيلة البيع ؛ في كيس عبارة عن جوال مقطوع عند ثلثه التحتاني ؛ و هكذا..... لن ترى أكثر من أمتار قليلة ناحية اليمين أو اليسار ، لو كنت في أي مكان من هذا الشارع أو في أي بناية من بناياته ، و ستعرف أن الشارع طويل جداً و كلّه انحناءات ، حتى لو كنت واقفاً أمام عمارة " المكاوي" الواقعة وسط الشارع تماماً .

كانت حركة العاملين في المقلة سريعة ، و انتقالات أيديهم ما بين الفاترينات و كيس النقود و أيادي الزبائن الممدودة محسومة دقيقة ؛ لا تكاد تراها ؛ كأنّهم يمارسون طقساً إيقاعيا يتسارع بازدياد أعداد الواقفين أمام الفاترينة العريضة ..

جميعهم يعرفونني و يمنحونني ابتساماتهم الساذجة بأسنان صفراء أو بنية ، اعتدت أن أمّد يدي بالربع جنيه ، فيعطيني أحدهم الكيس الورقي المترع بالفول المقشر ، ثم يضرب يده في الفاترينة ليملأ يدي الثانية ، فأبتسم شاكراً .. كنت أستغني عن عادتي يوم الجمعة حين تبدو المقلتان كالسواد و يختفي الصعايدة من المدينة تماماً ، ما عدا " فكري" القَمّاش" ؛ فقد كان صعيدياً أيضاً لكنّه كان مسيحياً .

- وقفة:-

عندما اقترب " فكري" القَمّاش واضعاً ذيل ثوبه في فمه ، و هو يسند عصاه الطويلة التي تحمل بضاعته على كتفه ، قال أن زبوناً جعله يفرش كل أقمشته على الأرض ، فأهلكها المطر و الطين ؛ و ظلّ واقفاً ينظر نحو الأرض ، فقلت له : " الناس مضطهدينك عشان مسيحي يا فكري " ...

فملأت ضحكاته الشارع كلّه ..

- الجمعة:-

يوم الجمعة هو اليوم الوحيد الهاديء نسبياً في الشارع .. فتستطيع سماع صوت "نسرين" الهاديء الرطب و هي تنادي على الخبز الطازج ؛ كل قاطني الشارع يشترون الخبز من "نسرين" و كل العابرين يحّبون وجهها الملائكي و نصف ابتسامتها ، حتى أنّ عمّ " صدّيق" المكوجي كان يبحلق فيه دقيقة كاملة بعد أن يغلق دكانته ساعة المغربية كل يوم ؛ و يقول أنّ وجهها هو الطازج ؛ و أن الناس

يشترون الخبز البارد من أجل نصف ابتسامتها و قولها " اتفّضل" .

- الولد "رزق" :-

" لم يعد هناك همّ يشغلني"، لم يعد هناك شيء.." .. كانت هذه الجملة تتردد في دماغ "رزق" ، تعلو و تنخفض و تصيبه بالصداع ؛ و كان هذا أكبر همّ في حياته ، " لم يعد هناك همّ يشغلني .."؛ أن تتعدد الهموم ، تتكاثر و تحيطه و تمتد على طول طريقه فلا يعود يرى شيئاً من خلالها ، حتى انّه لا يراها ذاتها ... " لم يعد هناك همّ يشغلني .." ؛ كانت الهموم جيلاتينية تسبقه في كل خطوة ، مع أنه تعلّم أن يتوقع الأسوأ دائماً ، مقروف و حزين بلا سبب ، لا يمسك شيئاً بيده ، كان سروره هستيرياً و ضحكاته صاخبة مُبالغ فيها ، يريد أن يكون ساكناً راضياً و طيّباً يحبه الجميع و يحّب الجميع ، ".. لم يعد هناك شيء ....." كانت أمنيته أن يكون حماراً ، أن يكون مثل "فتحي" .." فتحي لا يعرف شيئاً سوى الشيشة و البقشيش .. فتحي لا يعرف نسرين مثلي " ،.. يغتاظ " رزق" حين تبتسم " نسرين" لزبائنها ، تمنحهم أسنانها و عينيها ، لكّنه يشتعل حين يشير " فتحي" لذلك ، كاد يقتله أمس حين قال له أنها مجرد "عاهرة" صغيرة – كاد يقتله فعلاً - . لكّن " فتحي " أقنعه أن كلمة "عاهرة " كلمة مطاطة ؛ و هي تعني بلهجة أهل المدينة " الفتاة التي تعرف هدفها جيداً " ؛ ثم قال له أنّ كل النساء " عاهرات " حتى أمّه – أمّ " فتحي" نفسه- ، و سقطت صينية المشاريب من يده .

- وقفة:-

" أمّ فتحي" كانت تنام مع عمّ " صدّيق" المكوجي عندما كان " فتحي" في العاشرة ؛ و حين أخبر أباه أن " صدّيق" أجبره على النوم تحت السرير لينام فوق أمّه هو ، حاصر " أبو فتحي" زوجته في ركن الغرفة و حطّم عكازه على رأسها ثم رمى نفسه من فوق السطح ...

" لم يكن هناك شيء ..." قالها " فتحي" هذه المرّة ثم كنس الزجاج المكسور.

- الحجرة :-

في الحجرة الصغيرة المُغلقة دوماً من الداخل ، تربّعتُ فوق المكتب البارد ، كنتُ جالساً مثل الكاتب المصري أحوال التركيز في شيء ، قعد " فتحي" على البلاط يحرق القوالح فوق نار " البابور" ، و قام " رزق " ليشتري خبزاً ؛ ثم عاد بعد ساعة – كانت يده فارغة-.

- عادة :-

أن تجد أحداً جوارك ، يحزن حين تحزن ، يفرح حين تفرح ، يبحث عنك دوماً و تبحث عنه ؛ تفخر أمامه بانتصاراتك فيكون سعيداً ، يأخذك بين ذراعيه و على صدره حين تنهزم ؛ تتكلم له و عنه و به؛ يكون نقطة انطلاقك و وصولك في كل شيء ؛ النقطة البيضاء داخلك ؛ أن تجد أحداً تتنفسه و يتنفسك ، تكون له وحده و يكون لك وحدك و بعده العالم كلّه ....

فقط انظر لعينيه دائماً حتى لا تنساه حين يتركك ، تذّكر عينيه جيداً ثم اِبكِ، اِبكِ لِتُشّكل دموعك حروف اسمه ، ثم جِد أحداً آخر جوارك ، لا يتركك تنفث دخان سجائرك حتى الموت.

- حالة:-

بجوار مكواة عمّ " صدّيق" سندت ذراعي ، نظرت لأعلى حيث التلفزيون المتهالك يعرض نشرة الأخبار ؛ قال المذيع أنّ مائتي شهيد أشعلوا نار الانتفاضة منذ 28 سبتمبر ، و أنّ " باراك" يهدد باستخدام القوة إذا لم يتوقف الإرهاب الفلسطيني.. ضغطتُ أسناني ببعضها ثم سحبت نفساً

عميقاً و نفخته في قبضتي ، قال عمّ " صدّيق" أنّه لا ينسى مشهد " عرفات" و هو يُقّبل يد " أولبرايت" وزير خارجية أمريكا العام الماضي ؛ فقلت له أن الحكومات شيء و الناس شيء آخر ، وضع " فتحي" الشاي على المصطبة أمام الدكان و قال : " الفلسطينيين" باعوا أرضهم زمان و مش عارفين يرّجعوها ، و أجدادنا باعوا أرضنا للإنجليز و يبيعونها الآن للأمريكان .. المصريين طول عمرهم فهلوية .. النهارده نبيع ، وبكره نأمم ....." .

- الليل : -

الليل فارد ذراعيه حتى القمر ، أمّا عمود الكهرباء الوحيد المضيء فيبدو كغروب متأخر، التراب أكوام فوق طبقة الأسفلت المقشورة . أُراقب هذا الليل من بدايته و أتذكر " فتحي" .. تتخبط الكلمات في رأسي..الناس.. الوعي..الثورة .." فتحي" .. تروح الحكايات و تجيء .. " رزق" .. " نسرين" .. " أبو فتحي".. معي عود كبريت واحد و عينين كالجفاف.. أملك نصف علبة سجائر و حذاءً قديماً و جسداً منهكاً .. أنا الجالس بمقعدة باردة و بنطال متسخ من صدأ الساقية ، أمّا هي فراقدة كوحش إغريقي قُتل بغتة . مازال الليل يُشكّل حروفه المبهم حولها و أنا مثّبت عيني نحو فلتر السيجارة المحترق ؛ كان دخان سيجارتي متصاعداً و لا يشبه شيئاً ،أحطته بكفّيّ و ركبتيّ . كنت أصعد سنتيمتراً ثم أسقط على الأرض، كنت أصعد ، كنت أسقط تحت الأرض ، في باطنها.... يحاكمني المُخنثون من الجن و تعشقني أميراتهم ذوات الأثداء اللانهائية .. أشعلتُ عودي الأخير ؛ثم التّفتُ نحو مدىً مغلق .. و كنت وحدي.. نثر الحكايا القديمة اشتعالي .. شحيحٌ يومي .. و انكسار المدى مستحيل.. لم أكن أنظر ناحية المقهى كأنه أعطاني ظهره الملاصق للحقول الممتدة و كأنّها تنفي انحناءات الشارع.

هنا يندر العابرون و السيارات بعد العشاء ، يقف القوادون و العاهرات كل ليلة .. هل أجد " نسرين" بينهم .. اخترت هذه الزاوية حيث أراهم من جلستي فوق الساقية و هم يدّسون سجائر "البانجو" بين شفاههم ؛ و يبصقون البذاءات على سلّم المسجد الجديد .. ماذا لا تجلس معي يا " فتحي" .. أم تُفّضل الجلوس وسط الشارع الطويل الذي كلّه انحناءات .

- رجفة :-

لمّا جلستُ على الكرسي المزوي كانت يد " فتحي" مرتجفة هذه المّرة ؛ وضع كوب الشاي بين يديه ووقف ؛ كان غريباً أن ترتجف و الأغرب أن يتوقف أمامي بعد أن يضع الشاي؛ نزل بفمه جوار أذني و قال لي بصوت مبحوح " انت صحيح كنت بتوّزع منشورات أول امبارح ؟.." كنتُ صامتاً .. " قرأتُ المنشور الملصق على باب المقهى " .. لم أجبه .. " الحقيقة أن نسرين هي التي أخبرتني " أنتِ ثانية يا " نسرين " .. كل شيء فيها طازج إلاّ عينيها ... الجزء الهارب من شعرها فوق أذنيها .. حتى الايشارب الذي ترتديه لم يكن متماسكاً أبداً ؛ كان شعرها أسوداً و عيناها عسليتين ؛ جسد " نسرين " متماسك و أصابعها رقيقة .. لم أكن أشتري منها خبزاً ؛ لكنني اشتريت منها مرّة " قُرصة بالعجوة" .. " لا تخف فلن أخبر أحداً .. أنا أيضاً لا أشرب الكوكاكولا ؛ و أكره الأمريكان .." ؛ تركته و دخلتُ حمّام المقهى ، وقفت مرتجفاً ألعن الجميع .. " وراء كل مصيبة في هذا الشارع

امرأة .. رحمك الله يا أبا فتحي" . هذا الشارع طويل جداً و كلّه انحناءات .. و غرفتي مختفية في انحناءة صغيرة .
- وقفة :-
قالت لي " نسرين " : " معنى مقاطعة البضائع الأمريكية أن أموت " باغتتني بكلامها فتسّمرتُ..." الدقيق اللي بيتعمل منه العيش اللي معّيشني أمريكي .. أمريكي بس .." فغمغمتُ قائلاً " أن الأمريكيين تغلغلوا تماماً في مجتمعاً " .. كنتُ مندهشاً أنها قرأت المنشور ؛ لم أكن أعلم أن " نسرين " تعرف القراءة .. هذا الشارع كلّه انحناءات ..
- " أبو الأنوار":-
حين عبرتُ الشارع من ناحية ميدان " الخليفة" كانت بقالة " العشرة الطيبة " هي صاحبة الضوء الوحيد في هذا الشارع ، إضاءتها كشفت لي نقرتين مملوءتين بالطين كدت أخطو فوقهما ؛ و لمّا كان الهواء البارد يلسعني كنتُ أشّد بكّفي على عضلات ذراعي فكان القميص المبتل يزيدني ارتجافاً ، في ازدياد انكماشي و خوفي من الظلام و نباح الكلاب فرصة سانحة للعفاريت كي تقرض رأسي أو تدّق على ظهري . " إبراهيم " كان ينظر لي بابتسامة ودودة مُحّفزة ، دعاني للاحتماء من المطر داخل دكانته؛ " العشرة الطيبة " عبارة عن متر في متر و نصف ، لا تكاد ترى داخلها بضاعة تُذكر و سوف تقع في حيرة حقيقية حين يُلّبي " إبراهيم" طلبات زبائنه أمامك و كأنه يخلقها في اللحظة؛ ابتسامة " إبراهيم " الرقيقة تُخجلني و تُرعبني ؛ فهو يُحّدث الجميع بلطف ؛ و مع ذلك لا تكاد تراه يُحّدث أحداً . كان الجميع يُرددون أنه شاذ جنسياً ؛ فهو لم يتزوج أبداً منذ عرفه الشارع طفلاً يعاون أباه في " العشرة الطيبة " .. كل واحد يحكي لك حكاية سمعها عنه ؛ و لكّن أحداً لم يتعرض لشيء حدث له هو شخصياً مع " إبراهيم" إلى أن جاءت حكاية " أبو الأنوار" معه؛ و كانت فضيحة ؛ فقد شاهد " صدّيق" المكوجي "ابراهيماً" و هو يعاون " أبا الأنوار" في إتمام عادته السرية خلف الفاترينة ، قال " صدّيق" أنهما كانا جالسين كالضفادع . و لم يعرف أحد ما الذي جعل " صدّيق" يذهب إلى هذه الناحية في هذا الوقت المتأخر و هو الذي يُغلق دكانته قبل المغربية ؛ " إبراهيم" أقسم لي أنّ " أبا الأنوار" كان يطلب نصيحته في مرض منعه من إرضاء زوجته ؛ و لم يجرؤ أحد على سؤال " أبي الأنوار" أو مجرد التلميح له بما حدث ، فقد كان رجلاً شرّانّياً .
- الخبر :-
اقترب " أبو الأنوار" من " إبراهيم " ثم انحنى بجوار أذنه ، عندما رآهما " فتحي" ضحك ضحكة صفراء ، ثم وضع صينية الشاي جوارهما و ذهب . قال " أبو الأنوار" : البت بتاعة العيش طِلعت متجوزة .."
-"نسرين".....؟
- " أيوه .. و مِتطّلقة كمان ....."
- " تعرف إن عندها خمستاشر سنة ؟" ..
- " عرفت إنها كانت متجوزة عرفي من واد طالب في الصنايع و لمّا أهله عرفوا إنها حبلت خلّوه يطلقها .."
- " و مخّلفة كمان ..؟"
- " لأ .. ما أهل جوزها ضربوها لحد ما سقطت ....
و ابتلع " إبراهيم" كوب الشاي مرّة واحدة ثم ربّت على كتف "أبي الأنوار" .
- الإتاوة:-
" أبو الأنوار" يكره كل ضباط الشرطة و المخبرين مثل بقية أهل الشارع ؛ الفارق الوحيد أن اسمه و صورته كانا

مُعلّقين في كل أقسام الشرطة. ظَهَر " أبو الأنوار" في الشارع فجأة منذ عامين ؛ و كان يسكن مع زوجته في غرفة صغيرة جوار غرفتي ؛ فلم أستطع دخول الحمّام من يومها .. كان الجميع يكرهون "أبا الأنوار" ما عدا "إبراهيم" و لكنّهم كانوا يدفعون له الإتاوة كل موسم و كانوا يدفعون الضرائب كل شهر . و يقولون أن الله سينهي عمر الظالم بيد ظالم مثله . و هو يقول لهم كلّ صباح " ما يضايق الزريبة إلا البهيمة الغريبة " ثم يضحك حتى يصل صوته لآخر الشارع ؛ و حين مسح بيده على مؤخرة " نسرين" ضربته بحذائها البلاستيكي على رأسه و فرّجت عليه مخاليق الله أقسم أن يمتطيها وسط الشارع في عزّ النهار .

- وقفة:-

عندما غادر " رزق" المقلة متجهاً صوب المقهى رمى بعينيه ناحية اليمين ، رأى " نسرين" ترتدي تييراً رمادياً يُشبه مرايل المدارس ؛ وضعت على شفتيها لوناً أحمراً ثقيلاً ؟، و كان هناك طوق مرشوق في شعرها . لم تكن تلبس الايشارب ... كانت " نسرين" جميلة .

قرّر " رزق" أن يضرب " أبا الأنوار" و ليكن ما يكن . ثم عاد للمقلة .

- الأذان:-

اختلط صوت المؤذن ساعة الظهر بصوت صراخ حاد .. توقف اللغط في الشارع ؛ لم يكن هناك غير صوتين – الأذان و الصراخ- هل يكون الجميع نائمين ، هل يعلمون أنه صوت "نسرين" ... أيكون " أبو الأنوار" يُنّفذ قسمه ، صوت "نسرين" يقترب ؛ و أنفاس " أبي الأنوار" تلاحقني ؛ و ثمة شيء جعلني أشعل التلفاز و أتظاهر بالنوم ؛ كان المذيع يُعلن آخر الأنباء .. أتظاهر بالنوم .. صوت "نسرين" يعلو صوت الرصاص ... كان المذيع مُبتسماً و وراء ظهره صورة مُهتزة لولد قمحي مُلقى على الأرض ؛ أنا نائم ؛ ازدادت ابتسامة المذيع .. تحلّقت مجموعة من العساكر الصهاينة حول الولد .. صوت "نسرين" يقترب أكثر .. ضربوه بالرصاص في ساقه حتى انفصلت عن جسده ؛ ولولة "نسرين" تعلو ....أمسكها و هو يجّز على أسنانه و قال " اقتلوني يا أولاد الكلاب ... و اللّه أنا نائم .. كانوا يلوكون اللبان و يبصقون حوله .. كانت البصقات تقفز من التلفاز نحوي.... امتلأت الحجرة بالنخامة و البصاق الأصفر ..ضربتُ بذراعيّ لأزيل اللزوجة التي تحيطني ....؛ تلاشى صوت "نسرين" تماماً و ابتلعتُ البصاق حتى آخره..... نظرتُ من النافذة على الشارع القصير الذي انكمش في انحناءة مظلمة .

فبراير 2001

الخروج

1 – في وطن كالوطن ، في بلاد كالبلاد ؛ كُنّا نعمل كل يوم طوال النهار و الليل ؛ و كان أطفالنا يتمّرغون عرايا في

التراب فتزعق عليهم زوجاتنا كل غروب .. كانت زوجاتنا يلدن أطفالاً كي يلقينهم في التراب ليزعقن عليهم في الغروب.

2- ظهر الزعيم في التلفاز كالعادة ؛ كان وجهه متوّرداً و عيناه ساكنتين ، ارتّص الوزراء و المحافظون و كبار الموظفين و القادة خلفه ، كانوا جميعاً ينظرون لقفاه ؛ واحدٌ يعبث بخنصره ، و آخر يُدقق في حساب المسافة بين قدميه المضمومتين ، و ثالث واقف كالنائم أو نائم كالواقف .

قالت المذيعة بفرح و هي تغطي النصف العلوي لثدييها أن الزعيم سيذيع بياناً هاماً ؛ ثم رفعت سبابتها و وُسطاها بعلامة النصر و ابتسمت ، بعدها سقطت وُسطاها و انتصبت بقية أصابعها في وجوهنا ؛ فابتسمنا .

3- كان الأولاد يتصارعون و يحلمون ، يبنون قصوراً واسعة لفتياتهم ؛ كان الأولاد يريدون عملاً و نقوداً ... قال الأولاد " الزعيم يذيع بياناً ..... عادي..." ثم ارتكن كل واحد صدر رفيقته و نام . انسابوا في أحلامهم منتظرين يبنون قصوراً من الكلمات و الورق .

الفتيات كُنّ يحلمن بأردية بيضاء و زغاريد ، كُنّ يقرصن مَن تسبقهن للزواج في ركبتها ، قالت الفتيات " الزعيم يذيع بياناً ... الرجل الكريم سيمنحنا البيوت و الأزواج " ... ثم ناموا حتى الصباح في أحضان أزواجهم ، و الزعيم يُرّبت على كتف كل واحدة منهن .

كان العُمّال يعملون ، و الزُرّاع يزرعون ، و الموظفون يتوظفون ؛ كانوا يفعلون أشياء كثيرة كل يوم ... قالوا " الزعيم يعطينا علاوة ... سننفقها كلها .." ثم ناموا القيلولة ؛ منتظرين ليلاً فسيحاً يضم المقاهي و أوراق البنكنوت .

أمي قالت " الزعيم يمنح دوماً ، أمّا الوزراء ملعونون ليوم الدين لأنهم يأخذون ما يمنحه الزعيم و فوقه " .. ثم قبّلتني قبلة طويلة محشوّة بالانتظار .

4 – تنحنح الزعيم فصمت الجميع ؛ وقف كل من بالمقهى أمام التلفاز ؛ قال الزعيم " عشرون عاماً و أنتم ساكنين .. شعب ميت .. سئمتكم .." بكى الجميع و انتحبوا .." سئمَنَا الزعيم " .. ثم ضربوا جملة واحدة في الهواء " لا تتركنا يا ربنا " ؛ صرخ الزعيم " عشرون عاماً بلا ثورة .. مللتُكم .." ثم حزم أمتعته و رحل .. فحزمنا أمتعتنا في كيس كبير و سرنا خلف الزعيم طابوراً طويلاً .....

أخذت كلماته تتساقط فوق رؤوسنا .." سألقي نفسي في المالح .."

و كانت الأرض تتمدد و تنكمش ... تزمجر و تنبسط و هي تمّد صدرها اللدن فنمشي فوقه الهوينا ؛ ألقينا أنفسنا في المالح بنظام .

أغسطس 2001

العودة

1 – محموماً تحت بصقات السماء المرتجفة ، تتلقى كريات الطين فوق ملابسك ، ثم تحّك نعليك في الأسفلت الممّوه ، و برغبة خفيفة تتطّوح في المساءات كثائر أعمى ؛ فيمتزج صدرك بطنطنات عن الرغبة و عن الوطن .. حينئذ ستحتضن رأسك لتنام كثيراً ، فلا تستيقظ حتى انفلات رأس " التّبّاع" جوارك ..

- الجامعة .. الجامعة .. الجامعة.....

قلتَ مرّة " لا أحب فرض الأمكنة ، أحب انتقاء الطرق و المقاهي و الفتيات اللاتي لا يهتم بهّن أحد ، و مع هذا أروح و أجيء و أرقص في أمكنة خُلقت قبلي ، فماذا ستفعل بي وجوه و جدران لا أعرفها ؟! هل ستُفّجرني فأنتشي ؟ أم ستنظر لي في بله .. و أصمت ؟" ..

برغبة صديقة تقذف جسدك فوق كنبة " الميكروباص" النحيلة ، تُلصق عينيك بالزجاج المُعّبش ؛ فتتأمل البنايات المتهالكة ، حيث البيوت تحزق و تلد رؤوساً و أرغفة . فتتمنى أن ترقص كالزنوج برهة ، ثم تبول بعدها للأبد . و ككل مكان يحوي بشراً في أمعائه ، يُتّبل الجالسون في " الميكروباص" وقتهم بالثرثرات و السجائر ، يتحدثون عن الانتخابات و الكوكا كولا و حجارة الفلسطينيين ، فتتذكر حكاية عن بوادر صراخ مكتوم انسّل في الغرفة ، و طشت مُليء ماءً فاتراً و أدعية ، و ذات الردفين الهائلين سيدة المكان ، حيث الطشت و السرير العريض فقط في الغرفة . البكاء البدائي يصنع أحلاماً و دهشة خلف الباب ، حينها تنصهر الفرحة و الخوف فيخلقان تتابعاً شديد السرعة ؛ و ترتمي خطوط الغرفة نحو مخرجها الوحيد – و مدخلها- فتندفع الزغاريد رائقة حلوة ؛ فَرِحة بكائن ضئيل رآه الجميع جميلاً حينها ... و لم تكَن هكذا .

-2

- سأذهب للجيش غداً ..

-.....

- استقبلوني بلقيمات خبز متعفنة ، و زجاجة مياه أشرب و أستحم منها أسبوعاً ..

- .....

- صفعني الصول على قفاي ، و ضربني ضابط المخلاة بالشلوت ..

-.....

- " دين أمك على دين أم بلدك "..

- .....

- كسروا نظارتي ... تعرف أني أحب بلدي ...لن أعود .

-3

" الأجرة يا أستاذ ..."..

و ما كنت تملك صاغاً واحداً في هذا المساء ، و في مساءات كثيرة قبله .. فهل تستعطف " التّبّاع" أم ترجو السائق ؛ أم أنك ستخبره بخيلاء فارغة أن ينتظر هبوطك لتستطيع وضع يدك في جيبك ؛ ثم تضع طاقتك كلها في ساقيك فارّاً من تحسرات الجميع على " التّبّاع" الذي يستغفله أصحاب "التي شيرتات" و البناطيل السوداء ، بينما لا يهادن عجوزاً أو طفلاً من أجل خمسة قروش .. و ستسمع أمثالهم عن الحرام الذي يجيء من هنا و يضيع من هناك . ربما سيحدث كل هذا .....

و ربما لن يحدث شيء أبداً ....

" الأجرة يا باشاوات " ....

قاله بسخرية العالم بكل شيء ، يعلم تماماً أن الجالسين من طبقة أضعف من أن تملك سيارة ، و أقل من أن نستأجر " تاكسي" ، و أعلى قليلاً من أن تمشي على أقدامها – ربما في هذا الوقت فقط - . و انت كحصان

جامح خجول تطأطيء رأسك نحو الأرض ، تنفث من منخريك رتابة الوقت ، تُوقف دماغك قليلاً – ربما لتحبهم – بَيْد أنك ستبدو لهم كذبابة ، في حين انفلت من بينهم حمار برأس خشبية ، فأخذوا يمصّون ذيله في رتابة انقلابات عسكرية ، ثم يُمّرغون رؤوسهم بن إليتيه ، فيُغل بهم في الخطيئة أملساً كأخطبوط .

-" لما لا نبدأ بالسلام ... نحن أمّة طيبة ...." .

تخور كثور وسط عفونة الكلمات ، و هو ينساب برذاذه بينهم .. و مادام صوته عالياً واثقاً فهو واحد فاهم للدنيا الواسعة .

- " أُمّة طيبة ...ناس طيبون...."

فيخرج صوت " فيروز " ملتاعاً من " كاسيت" الميكروباص المُرّصع بالمصابيح الصغيرة الملونة . و أنت كواحد من الطيبين كنت موقناً أن "فيروز" هي هي " مريم العدرا"....

" البيت لنا ؛ و القدس لنا ؛ و بأيدينا سنعيد بهاء القدس .. لا تُصّدق كونها امرأة مثل اللاتي تراهن في الشوارع و أمام الفاترينات الصارخة ... " و ستغسل يا نهر الأردن ، وجهي بمياه قدسية " ..

لا ريب أن الله نفخ فيها من روحه لِتُنبت هذه الثورة ...هذا الدفء .. كما كنتَ موقناً أن الفتاة الجالسة جوار ذي الرأس الخشبية ليس ثمة علاقة بينها و بين الأنثى .. الأنثى دفء .. و هي " الفتاة الصقيع" ؛ كما أطلقتَ عليها بينك و بين ذاتك ، و لن تقوى على مجابهتها بهذا اللقب الفانتازي ، كون صمتكَ مبرر كاف للتغيظ منها ، انسّلت عن الثرثرات و اضطرابك و عن العالم بأسره ، ببرود فطري لم تلتفت أبداً نحوك .. حيث فم متسع اتساع العالم ، و أنف مُعوّج – كسرت عظمته مذ كنتَ طفلاً – و لم تعد مكانها أبداً ؛ بينما الوجه و الجبهة مجدورين بفعل غرس الأظافر في حبوب الشباب و المراهقة ، فلم تملك أثراً – و لو باهتاً – لوسامة مؤقتة . و ككل من شعروا بجسدك مرّة ، لم تُكّلف نفسها عناء النظر – مجرد النظر- نحوك .

-4

- يقبضون عليَّ فأُسجن .. أي حياة ؟

-.....

- أُسّلم نفسي فأُسجن حتى نهاية الحرب ، إن كان ثمة حرب ..

-.....

- أي وطن هذا الذي يُجبر أبناءه على كراهيته ؛ أريد وطناً أبعد ما يكون عن الوطن .

-.....

- سمعتُ أن الفلسطينيين ينقرضون ، و أن الأرض تتآكل ... و ما شأني ..

- .....

- ملعون أبويا ؟ ملعون أبويا !!

-5

" نازل فين يا أستاذ؟" .....

و هل كنتَ تعلم أين ستهبط ، أو هل قررّتَ أصلاً الركوب ؛ ثلاث سنوات قضيتها هارباً من خدمتك العسكرية كانت كافية تماماً لتختار الأماكن المظلمة الخالية ، حيث لا ضباط و لا جنود و لا مخبرين . فأنت تتذكر مرّة أوقفوك ، أخرجت بطاقتك في هدوء الواثق ، و كان وراءك -تماماً – مخبر ضخم جداً كالعالم ؛ كان ينقر جسدك قطعة قطعة ، كان يعجن جسدك خلية خلية ، و حيث كان عضوك منزوياً كان المخبر يعثر السر الذي يبحث عنه ، مُتقناً عمله في إخلاص ثم تركوك ... و أنت

مذهول من اغتصابك حتى الصمت ؛ لم تحرك شعرة من جسدك و كأنكَ مُكّلف في تلك اللحظة أن تحافظ على امتهانك حتى النخاع ؛ و حين أحسستَ بابتسامة المخبر بين إليتيك لم تنتفض ، و لم تركله بين فخذيه أو تثر في وجهه و وجوه من معه .. بل أخذت بطاقتك في هدوء من الضابط و انسحبت.. لماذا صَمَتّ ؟ لماذا لم تبك ؟ لماذا ؟.. لا تعرف .. أنت لا تعرف شيئاً ؛ و لا تقوى حتى على البكاء ..

-6

" لأُسجنَ في الجيش تبيعين ذهبك ؟!! "

السجن كجهنم و الجيش الجحيم بعينه ، و لِتُسجنَ في الجيش يدّخن المحامي " السيجار " و يسلب ذهب أمك .. أي مؤامرة تلك .. و ها هي أمك دشّنت أحلامها بين عينيك و أنت تعذب

نفسك و الآخرين حولك .. على كنبة " الميكروباص" الجانبية تُتمتم بلا شيء عن لا شيء ..

ثم تُلقي برأسك من النافذة فتتدحرج بملل فوق الأسفلت المبلل ؛ ثم تنقر الزجاج باسمة ، لتستقر فوق كتفيك مرّة أخرى ..

-7

" آخر الخط يا بيه ..." ...

نزلتَ من " الميكروباص" بثبات – يبدو أن الولد قد يئس منكَ فلم يطالبك بالأجرة ثانية - و ربما خيّلت لك نفسك أن أحدهم إنفطر قلبه على حالك فدفع لك ، و أنت منشغل تماماً بحكايات الصباحات البعيدة ، فتسير جوار سور "الجامعة " متخطياً كلية الحقوق و أرض كلية الزراعة المرشوقة بالقصب ، ثم تنحرف نحو " كوبري الجامعة الجديد " .. ها أنت تتكور منسحباً من جديد ، تاركاً الوطن لمن يدّعي امتلاكه ، تتحجج بخبطات أزهار النرد الصاخبة و سقسقات طالبي الشاي و المعّسل . تئن في وجهي بأن الحياة سائرة بنا أو بدوننا .. و أنت تعلم تماماً أنهم حين يمّدون رؤوسهم و موائدهم بالمؤتمرات و الصخب فنحن الخاسرون .. إنه وطننا نحن ذلك الذي يقتسمونه اقتسام العادلين ، ثم يتبرزونه فوق جُثثنا ....

-8

أنت تهبط انزلاقة الكوبري كدمية مفتتة ؛ بينما أحاول ممارسة فهمي لك فلا أستطيع ، أحاول إسدال الستائر و رفعها مرّة أخرى ، كي تصّاعد حتى قمة الحدث ، و انت تخبىء نفسك عني خلفهم .. حيث تملّص الجميع من ملامحهم الأساسية ، و صاروا بوجه واحد كعامل مشترك أكبر يقبل القسمة عليهم جميعاً ... تحاول تقليدهم فلا تقدر ، و ثمة حائط تستبدلني به فلا أتجرأ على النواح ، ثم ينفلت رأس " التبّاع" جوارك ....

" طلخا .. طلخا .. طلخا.....".

أكتوبر 2000

اختيار

اختلاط روّاد المحطة بأهل القاهرة و أشياعها كالتقاء النيل بالبحر – بينهما برزخ لا يبغيان- لكّن الحشد مرعب ، و الزعيق أسطوري ممتزج .. كأنه اليوم الآخر ؛ و أنت تهرول مع المهرولين نحو حمّامّات الرجال ؛ لتفّك حصرك .. فكأن القطارات وهبت ركابها جميعهم للأبواب الخشبية المغلقة .. يخبطون و يزعقون .. لو اجتمع ماؤهم لأجرى نيلاً جديداً .. و تساءلت عن مصير كل هذا الماء .. " أتجمعه الحكومة لتصبه فوق رؤوس العباد "..أصوات الزراط الممطوط المُنّغم تُنبىء عن راحة طال انتظارها .. و لك أن تستمتع بخلوة هادئة خلف الباب الخشبي ، إن دفعت القروش العشرة لعجوز دورة المياه .. هدأة غير متوقعة لارتباط أوصالك و حصر نقودك ..و لتنطلق بعدها تحت الأرض .. ممتطياً الاختراع العجيب .. سمعتَ أن الفرنسيين " استعبطونا " في الثمن .. و نحن أرباب الأضرحة لا يظلمنا أحد إلا أتاه الشيطان من خلفه ..آلهة صناعة البسكويت و اللبان .. و كل هذا لا يهم .. المهم أنك وصلت القاهرة ..." جاي لك يا زهرة " ... مقهى الأدباء و المومسات و شيشة التفاح .. هكذا تصرخ اللافتة الجديدة فوق تندة المقهى العميق .. أمّا الجالسين في الممر الطويل فهم أسماء المستقبل اللامعة .. هكذا قالت قصائد النثريين و قصص الحداثيين .. و لك أن تكون صعلوكاً لامعاً مثلهم .. لكّن اضطراب أمعائك أوصاك بتفريغ مخزونها أولاً .. بعدها الانطلاق بلا حدود ... كوبري قصر النيل و عروض الأوبرا المجانية .. و لا مانع من الفُرجة على أي شيء شرط كونه مجانياً ... خمسون جنيهاً لتقضي أسبوعاً بالطول و العرض و الارتفاع .. و المبيت أمر هيّن .. سلالم المحطة ليلاً تحتويك.. و سجاد جامع" عمر مكرم" للقيلولة .. هكذا تكون الحياة أو لا .. بينها تنبت الأجساد فجأة .. تشتعل ... و تُحرق بعضها .. الأرواح الملتهبة تأتلف لتسكُن .. فسكونها احتراق .. و احتراقها احتراق .. كان النهار لهيباً ، يشوي الأجساد المحمومة من ارتداء " الجينز" الضيق ، الملتصق بالأفخاذ خانقاً ما بينها .. و القروش العشرة هي الحل .. أتُعطي العجوز خمسين جنيهاً ليأخُذ منها عشرة قروش ؟! فلتنتظر حتى يهدأ الزحام .. سهلٌ عليك إقناع ذا الحذاء البلاستيكي .. فلن يُزعجك افتعال علاقة معه .. لكنّك المثقف الذكي .. و العلاقات لا تنفجر فجأة أبداً ؛ إنها تحمل تاريخها الخاص من نظرات أو ابتسامات أو حتى ادّعاءات التنافر و الصراع .. و هذا آخر ما تبحث عنه .. فلن يُجديك إغضاب كبير آلهة دورات المياه .. و لن تجني عندها سوى اضطراب أمعائك .. أمّا لو أصّر العجوز على أخذ العشرة قروش مقابل الخلوة المقدّسة ، فليس عليك من شيء إن اختلقت حكاية تُبكي العجوز على حالك .. إنها المهنة الوحيدة التي تتقنها .. الابتكار .. الإبداع .. إنك مبدع ، و المبدع صادق في كذبه .. فلتندفع نحو العجوز " لا تضطرب يا أبت فنحن الصادقون .. نُجّرد الأشياء من حُليّها لنتخذ البساطة سبيلاً ..."... طوفان الأجساد يُبعدك عن العجوز .. بينما تأكدت من غبائك حين جعلت الخمسين جنيهاً ورقة واحدة ... " هكذا أؤخر صرفها حتى اللحظة الحرجة " .. قلتَ هذا و لم تحتمل مثانتك كل هذا الضغط.. كل هذه الفوضى .. و لم تحبك فتاة أبداً سوى في قصصك .. تلك التي تموج بالأصدقاء الوهميين .. ارتكانك الكون وحيداً .. صخب الأصحاب .. لهاثك وراء أعقاب السجائر طفلاً ..النيكوتين المتحكم في تصرفاتك .. البكاء .. العشق.. الوحدة ..

الجنون ..الاحتراق.. الحياة .. الموت.. الحياة .. تزفر الآهة تلو الأخرى لتحسم قراراً .. أتحتفظ بالورقة المُطبَّقة للأبد ..أي قرار .. أتمنح العجوز المال و البول ..لا تحتمل مثانتك .. فلتتوقف عن التدخين .. تنقبض مثانتك فينخفض الضجيج .. تختلط الألوان جميعها .. الصمت الأبيض كثيف لزج و مُحّبب أيضاً .. كان قراراً وحيداً حسمته ساعتها .. و لم تُنّفذه أبداً .

جسد مُكّوم في الزاوية تتوسطه بقعة ساخنة .. تحيطه أطواق فضية شفافة .. تدور فوقه ..يسحبه العجوز .. يغطيه بنسخة وحيدة لجريدة أزلية .. فينسحب الحبر الأسود فوقه .

سبتمبر 2000

المرّشح

1- مُعلّق بين انطواءات الماضي القريب ؛ و لم أكن هناك حيث روائح المدينة الضاحكة ، قدَميّ هواء فوق هواء ، و رأسي فراغات عديدة لا تملؤها " كرابيج " السخط و النصائح .. فلا الحلم اتضّح ، و لا الأفكار حفرت سُبُلها الواثقة..ألقي رأسي للخلف مرّات و لا أنفجر..لا أنتشي أو أموت كفأر رمادي .. لكنّي في الليل كثير النظر للنيل.. أرسمه أمامي حزيناً كدمعة بطيئة ..ظمآن لارتعاشات الحقيقة ، لون السماء أسود لا ينتهي ؛ حتى سور الكورنيش قد التصق بصدري ، دفن نفسه بين ذراعّي.. و لم يبتسم .. فهل يبتسم النيل و قد رآني حزيناً !! أهفو إليه دوماً ساجداً .. و لم أعبده إلاّ ليرد عليّ ؛ فلم يقبل سجودي ؛ و لم أنتحر ..في آخر ساعات النهار اتجهت قدماي نحو المشاية السفلى، جوار النيل لا أتوقف و لا أسرع ؛ أخيراً أنا و هو وحيدين ..تحت أبخرة الأفكار الحامضة جلست ؛ فليس الطريق صديقاً ناصحاً ، و ليس سوى دماغي و النيل حبيبين .. ثملاً تمنيت نفسي ؛ أو قتيلاً.. ثم أعود ماحياً الحياة من بدايتها .. بادئاً من زاوية جديدة .. حيث أُقبل قدم تراب قريتي المهجورة .. أمزج دمي و لحمي الطازج في هوائها .. ثم أُفتت عظامي بين دروبها ؛ و أطمئن .....

في هذا العالم .. حيث لا فرق بين أي شيء و أي شيء ... بيني و بينكِ .. و حيث التقينا كنتِ كثمرة مانجو معطوبة ... و كنتُ كالعادة متأخراً .....

2 - متصلاً بماسورة صفراء بنية مسودة ؛ ضاربة في الأرض ؛ و محاطة بثلاثة أرباع مربع من الطين المتماسك .. قديماً قِدَم الدهر ..كان صنبور المياه الصدء .. و في الخلف الترعة كانت ساكنة ..على جانبها المقابل للقرية ترقد تلال من الطين و القاذورات و البلاستيك ..قد أخرجتها الكراكات الضخمة من المياه الراكدة .. كان الرجال يغسلون بهائمهم فيها .. نصف عراة .. أمّا الأطفال المتسخون فقد تعرّوا تماماً لينظفوا أنفسهم في مياهها الملوثة العكرة ... يتقافزون حول الحيوانات و يمتطونها ...يغطسون في النيل و يبقبقون حول ورد النيل المتناثر ..ينظرون بعيون باهتة نحو أمهاتهم الجالسات حول الصنبور ..كل واحدة تحمل إناءها الضخم .. تجلس حول " المرّشح" .. كانوا ينظفون أوانيهم ليرى الآخرون بقايا طعام الأمس _ إن كان ثمة بقايا_ إن كان ثمّة طعام _ ؛ و لا شيء يختفي في هذه القرية .. ينكشف المستور تماماً أمام هذا الصنبور الراكع في انحناءة ؛ و كأنّه إله نحيف يتحّسر على القرابين المُقدّمة .. كانت أمي تنتظر دورها مثلهنّ حاملةً إناءً ضخماً كحفرة .. فانتشرت الآنية الضخمة حول " مرّشح" القرية .....

3 - غالباً ما كنت أُشّكل نفسي كيفما أريد .. أصنع مكعبات و حروباً .. ثم أحشرها في دماغي .. فتخرج من فمي طلقات غاضبة .. لكنني احتضنت نفسي هذه المّرة طويلاً ...و انتظرت .....

4 – على سرير بالكاد يسع ثلاثة أشخاص بالطول ... تمدد أبي و أمي و خمسة أطفال قذرين و فتاة كالربيع المغموس في طين لزج ..رقدت جوار أخي الضخم تحت السرير ؛ صاعدة عيناي من شقوق السقف الكثيرة .. كان الجميع مكدودون من حروبهم طوال النهار ..كان أخي في إجازة من جيشه ليومين اثنين .. الأوكسجين المشّبع برائحة الروث يملأ المكان حتى تُحسّ طراوته اللزجة .. و أنا فرجت ساقَيّ ... دلّكت عضوي بهدوء .. غير عابيء بأخي الضخم النائم كقبر .. ثم احتضنت كوابيسي اليومية ..فكانت المشاهد مُغبّشة ككل يوم .. إلاّ جارتنا ذات المقعدة الهائلة .. أسكنتني بين ثدييها فانفجرت و تكوّرت و تجمّدت .. ثم نمت .. و الصباح المبّكر مظلم كالعادة ... نمارس فيه طقساً كشعيرة وُزِّعت فيها أدوارنا بإحكام مؤامرة مجهولة ..

أضع الجاز في فتحة البابور حتى يندلق ؛ ثم يُشعله أخي فتَشُمُ طيناً برائحة الروث المعتق بالجاز .. بعدها يضع أبي الوعاء الكبير فوق البابور .. يُحركه منساباً حتى يسوّد قاعه تماماً .. و ظَهْر أبي المثني لا يستقيم أبداً .. بعدئذ تفعص أمي نصف حبة طماطم معطوبة ..تفعصها حتى تقتلها في الوعاء .. تمسح الإناء بها حتى يغمّق لونها ..تُسقط فوقها قطرات الماء و تُقّلب .. فيُسمع لها طشيش الزيت .. و تخبط بالملعقة فوق الإناء خبطات الطباخين المهرة .. حتى نكاد نحن المشاركين في المؤامرة الصغيرة نحسبها ملأت الوعاء من خيرات الله .. ثم تغسلها في " المرّشح" وسط النسوة .. فيحسبن أنّ طبيخاً زارنا بأمس .

5 – قالت لي أمي : " ادخل حضن السما ، ينصرك رب الخلايق ، يكون ملاذك م العفاريت و و لاد الجناني ، و اللّي قلوبهم واجّه بالحقد و الحسد ، يمكن تلاقي الحب مصرور في السما ، تفكّه .. تبعتره ع الأرض تصبح سلام ... يمكن تلاقيني السما ، فأوشوش قلبك بسر الحياه ... تعجبك ....."

ثم وزّعت الرغيف علينا .. رغيف واحد لعشرة أفراد .. لا يُصمت الرغيف صرخات المَعِد الغاضبة .. إنه يجعلها تصرخ أكثر ..تعوي.. حين نأكل نزداد جوعاً ....
و حين وجدنا حصان جارنا النحيف طافياً فوق ماء الترعة .. قد انتفخت معدته تماماً ... كانت أحشاؤنا ممزقة ..تزأر جوعاً .....

6- كان أخي الكبير الضخم يُشعل البابور المقدّس.. يُسّلك فتحات عينه الواحدة بإبرة سوداء عتيقة ، يمنحه نفساً ؛ ثم يلّف مفتاح الجاز يميناً و يساراً .. يعطيه نفساً ..يُشعل ورقة كبيرة فوق العين الضئيلة .. يُسّلك و يُشعل و يلّف المفتاح ..
حين غضب البابور من أخي الضخم نفخ في وجهه.. لفّه يميناً و يساراً ... أحرقه تماماً قبل أن نجد خرقة تستوعب الجسد الضخم لتطفئه ... يجب أن يلحق أخي بقائد الوحدة قبل ثلاث ساعات ..يجب أن يلعب طفل القائد الكرة ؛ و الولد لا يستطيع اللعب دون قائمي الهدف .. كانت الشجرة الصغيرة وكان أخي .. و لم يكن الولد يُصّوب بين القائمين أبداً... عرفت ساعتها لماذا كان أخي الصامت ضخماً كورم ... لا تتوقف الكلمات عن السريان في جسد القرية .... تنساب أمام " المرّشح " و خلفه و من بين أجساد القاعدات .... و كانت صرخات أمي و أختي تئن تحت إبط القرية المشبع بالتراب ؛ قريتي بطعم التراب اللزج .. و أخي صامت بلا صرخة واحدة ...الهواء مثقل برائحة البرسيم .. مُشّبع بأمراض الريف المشدودة من أعماق الأرض القبر . هل كان المكان فارغاً رغم الجثة المتفحمة التي أحاطها جلباب جارتنا ذات المقعدة الهائلة ،
الميكروفون البدائي فوق زاوية الصلاة الصغيرة يُعلن آخر المقبوضين .. الرجال منتشرون بجلابيبهم الزرقاء المتسخة .. النسوة سواد يُصدر صراخاً بلا نهاية .. و القش رطب .. الأطفال منكمشون في الجدار و دموع ملائكة الرب لا تغسل المكان ... نهيق الحمير طغى على الصوات و الاستعاذة بالله .....
كان المكان فراغاً ..... و كانت يدي باردة .

7 – الليلة نجلس سوياً .. ترسم أجسادنا ابتسامات بلهاء .. و يتقّطع اللعاب تحت شفاهنا ... لا ننظر لبعضنا أبداً ... نضحك .. نبكي... و نطفو فوق القرية كجثة حصان جارنا ....
و لم ينتحر أبي و لم تشنق أمي نفسها ... إلى المدينة الكبيرة ارتحلنا فلم يبق لنا شيء هنا ...و لم يكن لنا شيء هنا ..
سوف تخيط أمي قلوبنا الغضّة ، لنعلم أن أيامنا ليست هنا .. و ستتفتح عيوننا على مدينة ضخمة ... و أب زادت انحناءته رسوخاً .. يصرخ في صمت يضحك في بلاهة لكنّه يحمل أشياء كثيرة على قفاه ..و ربما لن

نشعل ناراً بعد الآن و لن تذهب أمي إلى " المرّشح " أبداً .. لكننا حتماً
سنصبح بلا قرية .....
فقط ... سندين لأنفسنا بموقع آخر للانفجار .....
فبراير 2004

عن فتات لا يصنع كولاجاً.....

1- ثورة

2- تداعي

3-أطروحة

4- اللهّ

5- يناير

ثورة

أمر الوالي بقطع لسان الثائر ... ثار الناس... وضعوا الثائر فوقهم ..
أمر بقطع رقاب الناس .....

نوفمبر 1999

تداعي

ربما يتساقط.. يهوي.. يُقتلع من جذوره .. لكنّه يظل دوماً موجوداً ..
يرفرف بين جثث رؤوسنا .. ينسّل داخلنا برفق .. يتمدد..... ثم

يرحل ممتطياً صهوة شيء ما .. حاملاً بين ضلوعه أفكاراً تبشيرية بشيء أقل سوءاً .. فنرفضه ..نُسقطه .. نقذفه لأعلى نقطة و نتركه .. نقتلعه من جذوره ... لكنّه ..... يتتوبت !!!

نوفمبر 1998

أُطروحة

شاب غير محدد الملامح .. على الرغم من ذلك فهو يشبه المحللين النفسيين .. يُجلسني فوق " الشيزلونج" بهدوء ناعم .. يتحسسني .. تلتف يداه حول صدري .. أتحسسه .. أُدير وجهي للأسفل .. شعور رائع بالدفء وسط هذا البرد الصارخ .....
أنهض بهدوء .. أخلع بنطالي .. أغسل آثاره ما بين جيبيّ الخلفيين .. لا أستطيع اتهامه بشيء .. فتلك تبعات العولمة .. أصرخ بقوة .... " حدّ يولّع النور" .. أتثاءب .

نوفمبر 1998

الله

-1

- اللّه ...

نطَقَها ممطوطة قوية ، تحمل لذة خاصة ، هكذا كان ردّه دائماً .. " اللّه" .. ثم يُقّبلها و قد أحاط نصف جسدها العلوي بذراعها .. هكذا تُصّدق رضاءه عليها .. فترضى .. اعتادا ذلك منذ زمن .. كان يحبها ، و يخبرها بذلك دوماً – تلك طريقته- .. كانت تحبه ، و تخبره أنها تكره الحياة مع ضعيف .. – تلك طريقتها- .. كان يقول " كل ضعيف رقيق.. كل رقيق فنّان.. كل فنّان ضعيف.." و كانت صديقتهما تقول " أنت رقيق .. أحب ذلك .. أنا أحبك .."

- اللّه ...

نطقها ساخراً .. و تزوّج صديقتهما ..

حين أخبرها أنه تزوج صديقتهما أمس ، و أن نابين خرجا من فكّها العلوي امتصا دماءه كلها .. ثم عاشرته ميتاً .. حينها بكت .. ارتمت فوق صدره و أخبرته أنها حلمت ذات الحلم .. قالت " أنت حبيبي.. أنت رقيق.." فقال " لستِ فنانة".. ثم قبّلها و أحاط نصف جسدها العلوي بذراعه ..... فقالت ....." اللّه"....

-2

يملك جسداً رياضياً و شعراً ناعماً .. يملك نجوماً و نسراً ضخماً فوق كتفه .. حين سلّط المخرج الضوء فوق وجهه ، بدا منتفخاً و أحمراً ..

قال " نحن أقوى دول المنطقة .. سنُغيّر مجرى التاريخ ، و نَهَبُ الأجيال القادمة الأرض و السلام .."صفّق المخرج و العاملون وراء الكاميرات.. ازداد وجهه انتفاخاً و قال" نحن نريد السلام .. إسرائيل تريد السلام .. نحن و إسرائيل نحب بعضنا .. سلام "
ثم صفّق لنفسه في المرآة..
كان يملك جسداً منتفخاً و شعراً ناعماً .. كان يملك نجوماً و بيضتي حمامة فوق كتفه .
-3
مُحاطاً برجال الدولة .. يُهلّلون لوجودهم جواره ..قالوا " أنت القائد المُفدّى .. اعبر بنا المرحلة " ، فابتسم.. قالوا " نحن وراءك حتى الموت " .. قال " موت آخر فرد فيكم " .. فانتشوا ثم قالوا " أنت فلتة الزمن الحالي و القادم " فضحك و تقّلصت أمعاؤه .. و أخرج ريحاً بصوت و رائحة ... قالوا " تلك رياح التغيير .. زِدنا".
-4
ثمة كتب كثيرة بأغلفة ناعمة و خشنة .. ثمة عناوين و ألوان .. ثمة رجال يصرخون و يهتفون بحياة الأحياء و موت الأموات .. ثمة أقلام و مقاه و جامعات .. ثمة نظام عالمي و صناديق اقتراع .. ثمة نساء يتحررن من " اللباس" ... و ثمة ولد يتغوط.
-5
- الله عملها...
فأمسك طفله حبة فراولة كبيرة .. قَبّلها و قال " أنا أحب الفراولة .. أنا أحب الله لأنه عمل الفراولة ".. ثم أكل كثيراً ، فتوسّخ فمه و قميصه .. لكنّه كان سعيداً .. حين رأته أمه قالت " يلعن الفراولة " ... فقال لأبيه " أمي لا تحب الفراولة .. أمي لا تحبني .." ثم بكى .. فقَبّلته ثم احتضنت جسده الصغير و قالت " يلعن الفراولة الزرقاء .. الله عمل الفراولة حمراء .. أنا أحبك و أحب الفراولة .".. بعدها أصّرت على تنظيف جسده و ملابسه ، فبكى .. قالت أمه " سأضربك بالعصا .. اللّه عمل العصا " .. فصرخ .." أكره العصا ، أكره الله لأنه عمل العصا ..".

فبراير 2000

يناير

جوّال خفيف الحركة .. أمشي أعواماً بلا كلل ..لكّن دماغي ثقيل .. مُليء اندهاشاً و غربة .. غريب أبتر بدونك يا " سمر" .. و أحبك .. و الله في منتهى الذكاء .. خلق شارع البحر ..بثّه في عينيك .. و اصطافني لك .. ليس شارعاً حتماً كيان متكامل .. عالم .. حُشي كائنات و حركة ..مُليء يقظة و سكوناً .. شارع البحر الممتد بطول المنصورة ..أرائكه صامتة .. مراكبه متناثرة بطوله .. أشجاره قليلة الأوراق دائماً .. يثوي تحتها بائعو الترمس .. يرهبون الأمطار و شرطة المرافق ..
- " حمله يا جدع...اجري...."...
فتُنبت الأرض مخبرين و حسرات.. لم تعد ثمة جرائد مثقوبة أو معاطف صفراء.. بناطيل "جينز" و نظّارات "ريبان" مقلدة .. خنافس نتنة .. و الضابطُ بغلٌ من أكل التِرمس الحرام.. أمناء الشرطة مختنقون بصفاقته..قد شاركهم أرزاقهم .. و قشر التِرمس متناثر على طول الرصيف.. كذلك الفتيات.. مبعثرات.." استريتشات" و فُرج بين الأثداء الرمانية الصلبة نوعاً .. ضحكات مغناجة أو همهمات .. الكل ملتصق برفيقه..فبَرْد " يناير" قارص و مفعم بالتطلع نحو الاستكشاف.. و أنا صموت.. عميق الملامح.. أتباهى أمامكم بصدق حدسي.. بيقيني الزائف.. مُتشظ.. لكنني واحد.. أجوب البحر بعينيَّ..و أجوب المدينة..أتطلع إلى "الكاوبوي" فوق " طلخا" مُتكئاً..يدخن "المارلبورو" .. لافتة بحجم بيتنا..كوبري "طلخا" لا يقطع امتداد الشارع..و أنا أفكر في " سمر" .. لا أنساها أبداً ..أتسكع بين أرصفة " المنصورة".صعلوكٌ و الشوراع هادئة.. ريفية الصخب.. و "ميت حضر" معبقة بسر أزلي.. " خرّوب" و "ساندويتشات " فول و سينما " أوبرا"..ليست مدينة فقط .. لافتات " الحُسين" و " السيدة زينب" تعتلي محال كبدة و الكوارع.. و كأنّ الأرض تُقّدس سرها..تحمي ذاتها.. لوح محفوظ..و "سمر" تحيا في القاهرة.. أعشقها.. دربكة محطة " رمسيس" ..تطور المترو..الفُرجة.. لكني أخاف كلاب المترو البوليسية .. أخاف نشالّي " رمسيس" .. أرهب استفتاء " قاهرّي " عن مقصدي..لا يعرف..لكنه يصّر على إرشادي.. سأسأل ثلاثة أو خمسة أو عشرين.. و سأملك عشرين جواباً .. كلها خاطئة .. الجميع يدّعون معرفة الأشياء كلها.. و أنا لا أعلم شيئاً .. إلاّ " المحطة " و " زهرة البستان" و " عماد الدين " .. أرهب القاهرة .. تلك مدينة لا تُمتطى .. لكنني لا أرهب مدينتي .. تُطمئنني.. حتى عساكر " الأمن المركزي" أتأملهم مُطمئناً .. و ساخراً .. أتذكر صفوفهم أمام بوابة الجامعة ..مُنتظرين خروجنا .. – كان يوماً شائقاً _ و نحن نصرخ في صخب.. نهتف بسقوط الجميع .. فلتكن حرباً أهلية

.. و أنا أنظر حَذِراً نحو البوابة .. نحطمها ثم نجري عائدين للداخل .. نتعثر و نجري و نهتف .. و الفتيات احتمين بدورة المياه .. أصواتهن رفيعة حادة.. و العساكر ينظرون نحوهن في حرمان .. وجوه قروية ساذجة .. يتطلعون بشبق نحو فتيات الجامعة .. و نحن مختالون بثوريتنا .. والفتيات ثمار ناضجة ..طول عمري و أنا في هذه الغرفة .. بين " فلسفة الثورة ".. و " الإنجيل".. و " ألف ليلة و ليلة ".. أدخن أو أشرب الشاي .. أقرأ و أفكر .. تلتهمني الفتيات المعقدات فوق " الكنبة " العربي .. أنام فوقها أو فوق التي فوقها .. ألصق صوري على المسرح فوق الجدران .. أكدس أشعار " جاهين " و " درويش " على الباب .. أبكي أو أموت من الضحك .. بلا سبب .. فأنا مركز الكون .. و " سمر" أصل الخلق .. أنا أحب " سمر" .. و اصلي لله أحياناً .. لكنني أحب أمي أيضاً.. هي تكره السجائر .. تخاف على صحتي.. و أبي يكره زيادة المصروف.. أعشق التدخين ..و صوت " فيروز" يرفرف بين جنبات الغرفة .. " الطفل في المغارة .. و أمه مريم.. وجهان يبكيان .." .. و أنا في الغرفة أحاول البكاء .. فأسمع بكاء أمي من وجع " البواسير" ..و أقرأ.." أنتم من أسفل .. أمّا أنا فمن فوق ..أنت من هذا العالم .. أمّا أنا فلست من هذا العالم.. " أنا كائن ليلي ..لست مثلكم.. أفكر كثيراً و في كل شيء .. لا أتقيأ شيئاً .. أرتكز فوق أرتال الكتب و ابكي .. سقيمة تلك الغرفة .. لكنها لي وحدي .. و أنا أعشق " شارع البحر" ليلاً .. له قداسة الليل و رهبة الرب.. كأن الكون مرتكز عليه .. أكرهه نهاراً .. حين يمتليء بأتوبيسات " بلقاس" و بقايا " ورد النيل".. أعشق "سيد درويش" - كان صادقاً- و أكره " أم كلثوم" .. أخاف المخبرين .. و أتحدى " مدير الأمن " تتساقط صور الجميع أمامي .. شوهاء وئيدة .. كأوراق الدمينو المقدس .. و تبقى صورة " سمر " مبتسمة هادئة .. و " فيروز " صديقتي من زمان .. "أنا وِ صِغيره .. كان في صبي.. يجِي من الأحراش .. اِلعب أنا وياه .. " صدري خاوٍ من الأشياء جميعها .. و عقلي ممتليء.. و الكلمات مجردة.. " ناصرية".. طبقة وسطى".. تشدقات زائفة.. " ماركسيون".. عمال و طلبة .. و برد " يناير" حزين .. مندهش .. و الشعارات فجة .. صاخبة .. هراء أن تترك عقلك لأحد.. اترك أذنيك فقط.. حتى
" القوميون" مجرد أرتال دموية.. مسوخ .. " الإخوان " يعشقون الحياة .. متعصبون.. مخلوقات مقوسة .. برد " يناير" لاذع .. و " شارع البحر" ثقيل الوطء.. مفعم بالأمنيات .. و " سمر غائبة في حواري " الجيزة".. عيناها كبرد " يناير" .. صدرها " شارع البحر".. و أنا في الغرفة متكىء ذاهل .. مشرع رأسي بين ساقيّ و " فيروز" تصرخ في الخواء.. تغني لي وحدي.. تلتهب .. " الغضب الساطع آت .. و أنا كلي إيمان .. الغضب الساطع آت سأمر على الأحزان .." "

فيروز " تحبني .. أنا أحب " سمر" ,.. و " سمر تعشق " فيروز " لأجلي.. فأمنح أذنيّ لها .. أترنح بين ارهصاتها.. و الوطن بين ضلوعي راكد يحتضر .. فأحاول ترويجه بين الأغبياء .. و هم شوارد .. فلا برد " يناير " يقرصهم .. و لا يعطون آذانهم " لفيروز".. و لا يتمددون بطول " شارع البحر".. و لا هم يتذكرون " سمر ".

أكتوبر – نوفمبر 1999

عن النحاسيات و العفاريت....

.. و الغِربان و السلاطين...

....و المساكين ....

1- عن بعض النحاسيات ..

2- نحاسيات أخرى ...

3- آية التمهيد..

عن بعض النحاسيات

و نادى المنادي .. " يا أهالي مدينة النحاس.. قد حان وقت فتح القماقم.. لِتُخرج أبخرتها المدفونة.. فتصير سُحُباً بإذن الملك النحاسي الأعظم .. يخلق لها أذرعة و رؤوساً تحمل ضفائر الذلة و الخذلان .. فتصبح مَرَدَةً و عفاريت بأمره.. تأتيه بأسرّة النسوان الحبالى .. فيمتطيهن كيفما أراد .. كي لا يذبح غُرابَه المحبوب، و ولّي عهده الأبدي.. " يا أهالي مدينة النحاس....." .. و قام قائم من وسط المدينة الصاخبة يُعلن مبايعته و ولاءه لفترة ولاية ألفية أخرى .. " و كما تؤكد تلك الرقائق النحاسية الحمراء التي خلّفها لنا النحاسيون الأوائل : أنّ المدينة لم تملك أبداً حِزباً معارضاً .. أو جريدة صفراء.. أو قناة تلفزيونية خاصة ، فقد كان الجميع حِزباً نحاسياً واحداً .. و كانوا يحفرون حروفهم فوق رقائق النحاس الأحمر .. بينما لم يكن التلفزيون قد اكتُشف بعد" .. و تحكي كتب التراث المُحنّطة بين جوانب متاحف المدينة الخالدة .. أنّ صياداً فقيراً وجد خاتماً وسْط أحشاء سمكة عذراء كانت قد علقت بصنارته المصنوعة من الغاب المجوّف .. و حينما وقع منه الخاتم فوق راس صخرة بحرية .. خرجت من بطن الخاتم صفيحة نحاسية حمراء .. فخاب أمل الصياد في لقاء العفريت المحبوس منذ أزمنة غابرة .. و لم يكن منه إلا أن ركل قطعة النحاس الحمراء ليلتقطها البحر الجائع ...

" و كان طمعه هذا سبباً رئيسياً في غضب إله النحاس الأول ، و حامي حمى ديارها ، و مُبهج نسائها " ..

النحاسية السابعة : الصف الخامس عشر: السطر الحادي و السبعون بعد الألف الخامسة .

و لم يكد الصياد يرى قطعة النحاس التي امتدت و تمددت .. و امتزجت بمياه المالح و تشّكلت كذراع ضخمة طولها ثلاثة آلاف و أربعمائة من الأفدنة ، حتى أُغشي عليه من هول الصدمة و بهاء نور النحاسي الأول .. الذي غضب غضْبَة عظيمة.. و صرخ صرخة ارتجت لها أكوام المدن و جوانب الأرض و البحر استمرت مليوناً من الأعوام .. و بعدها طارد عفاريت الصباح و المساء المختفية خلف تلال السباخ و بين الحارات العطنة .. يُمسكها من عراقيبها و كعوبها .. فيُلقي بها في هوة القماقم السحيقة .. " و هكذا فعلتُ كي أُخلّص العالم من شرورهم .. و يبقون لكم أسرى لا يُفتدون .. حتى يأتي يوم تستطيل فيه ضفائر الذلة و الخذلان خلف رؤوسهم .. و هكذا كنتُ.."

النحاسية الأولى : الصف السابع و العشرون : السطر التاسع عشر .

و بعد أن فَطَر النحاسي الأول عرشَه اعتلاه .. و تشكّلت هيئة المدينة بذراعه .. فأقسم بروح الخاتم الأكبر .. أن تحّل لعنات عفاريته و مردته فوق أدمغة من يخالف قوانينه المقدسة .. و كما جاء في البنيان النحاسي الثاني أنّ " .. من يأكل سمكة أو ينصب لها شركاً أو يتزوج امرأة سراً أو علناً يُحبس ما لا يقل عن الألف عام و لا يزيد عن ثلاثة ملايين سنة في قاع قمقم تصنعه الأم بيديها ".. و جاء أيضاً عن أحد المؤرخين – و كان مؤرخاً علّامة – أنّ " من يخالف ذلك فقد باء بغضب عظيم يأتيه من بين يديه و من خلفه " .. و عوّضهم النحاسي الأعظم خيراً حين قال " لقد صنعت لكم الفواكه و البط و الأغنام لتملئوا بطونكم .. فكونوا عند حسن ظني بكم .. و ليباركم قرن الخرتيت المعلّق دائماً .. و ليحميه القمقم الأكبر .. باركتكم .."

النحاسية التاسعة : الصف التاسع و الخمسون : السطر الثاني و العشرون بعد المئة الأولى.

و لا يشغلنا من هذه الأحاجي النحاسية إلا ما جاء في النحاسية التاسعة المُعَّدلة للنحاسية الخامسة في الصف السابع و السبعين في السطر التاسع بعد الألف الثانية أنّ " .. من خالف النحاسي الأعظم أو قانوناً من قوانينه عامداً متعمداً .. دُقّت يداه بشرائح من حديد مغلي .. و يُستتاب سبعاً .. فإن لم يتب فقد حلّت اللعنة على الجميع .. و لتحكمكم المردة و العفاريت آنذاك .."

و بما أن النحاسي الأول كان ذا باع طويل و عريض في معرفة أمور السياسة و الدسائس و اغتيال خطباء المنصات . و بما أنه كان يملك ثلاثة عقول ..- أحدها يفكر به في أمور الحكم ، و الثاني في كيفية حماية العرش ، أما الثالث فلم ترد نصوص تذكره بخير ..-

فقد استباح لنفسه تعيين ثلاثة أولياء لعهده .. يمسكون زمام السلطة في غيابه عن المدينة .. فكان يعود من غيبته دائماً ليجد اثنين من الثلاثة قد اختلسا رقبة الثالث .. يعلن حينها وجوب تخزين رؤوسهم في القماقم الأزلية .. و ظل على هذا الطريق سالكاً إياه لِنَيف و تسعين ألفاً و تسعمائة و تسع و تسعين حقبة زمنية .. حتى جاءته هدية ملك ملوك ** " سيين و ايلفنتين" .. غراباً أسود .. ليليّ السواد ..ذا

منقار أحمر .. شديد الحمرة .. قد امتلك أصول الحكمة و الدهاء و الإخلاص ، و اجتمعت بين جناحيه لغات العالم السفلي و العلوي و الأوسط .. كما يُحكى أيضاً أن زوجة النحاسي الأول قد خلقت سمكة فضية عظيمة – لم يستطع مؤرخ أو باحث أن يحدد حجمها بالدقة المطلوبة – فاكتفوا بقولهم : أنها فضية عظيمة .. يحكى أن هذه السمكة قد أكلت نصف ذراع النحاسي الأعظم بإيحاء من زوجته .. فباح لها مُرغماً بسرّه المقدس ، و أنشأ من أجلها قانوناً يُجرّم الزواج من امرأة أبداً .. فكانت هي المُنجبة دوماً .. تنجب أطفالاً و رجالاً أو نساءً و عجائز .. حسبما اتفق للنحاسي الأكبر الذي حبس السمكة في قمقمه النحاسي الخاص .....

و بينما أُنّقب وسْط تلك المخطوطات و الصفائح النحاسية .. تلك الثروة الهابطة فوق رأسي عن تاريخ أولاد العمومة الأجداد .. لم أجد أبداً تلك النحاسية الحمراء التي تخبرنا عن ذلك الخطأ الذي ارتكبه أهل المدينة .. أو تلك الفعلة الشنعاء التي فعلها أحدهم ليطلق النحاسي الأعظم مردته و عفاريته .. و لم أعثر أيضاً على السبب الذي كان من أجله سيذبح النحاسي الأعظم غرابه المحبوب و وليّ عهده .. أو الذي دعاه للعفو عنه .. فعزمت على بيان ذلك .. علّ أحدكم قد عَثُر بتل النحاسية .. أو سيعثر بها .. ليعطي التاريخ حقاً غير منقوص .. و تلك ما تقتضيه أمانتي المهنية .

** أسوان و جزيرة فيلة (قديماً).

فبراير 1999

نحاسيات أخرى

و لمّا اجتهدت في بحثي و تنقيبي .. عرقت عرقاً غزيراً .. و انساب الماء من أسفل رقبتي و من عينيّ .. علّي أعثر بنواقص تلك الصفائح النحاسية .. مرّت تلك السنون من فوقي و من تحتي .. و أن أتأمل تلك الصفائح .. أو أحاول حلّ شفراتها .. فعجزت عن فهمها .. عندها اصطفيت واحدة قد اتّسمت بكثرة نقوشها و بهاء طالعها .. و كانت صفيحة عرشية (خطّها صاحب العرش النحاسي الأعظم بذات ذراعه) - قد أعلمتني خبرتي في الرقائق الفراء ذلك - تأملتها فابتهجت لحظة .. عساي أمحو غموضها .. لحظة واحدة .. نعم .. ثم انسكب في أذنيّ صوت جرسي .. كان جرسياً و عميقاً .. فظننت وحياً أتاني لأقرأ .. ثم تذكرت أني لم ابلغ الأربعين حتماً .. بَيْد أن ذلك الصوت ازداد و تمدد داخلي .. و انساب و تردد قوياً .. فاستحلتُ اسطوانة زجاجية فارغة (لم أكن أرى ذلك تماماً .. لكنني أحسسته) .. اهتزت الأسطوانة – أو أنا – و ترجرجتُ برفق ثم امتلأتُ عظاماً و خِرَقاً .. فاشتعل الجميع .. و صار الكل أبخرة نتنة .. دخاناً ذا لون و طعم و رائحة .. ثم انحبستُ بين الهلام .. فاستحلتُ خرقة تحترق جميع أطرافها نحو الوسط .. لِتُشكّل بروز عظمة كائن خرافي .. فظمئتُ حتى ظننتُني احترقت .. ثم كنت .. تلى ذلك سكون غشاني زمناً (علمت ذلك بعد إفاقتي).. عندها أومأت لنفسي أني هالك لا محالة .. فلا ريب أنها لعنة صفائحية مكتومة منذ الأزل أيقظتُها .. و هنا ارتعتُ حين رأيت صفيحتي العرشية استحالت نقوشها حروفاً واضحة .. كلمات مرتبة .. و كأن شفراتها أُهرقت و تجمّعت بعيداً .. و كأن أحدهم أحنقه اجتهادي .. أو أغضبه تحريضي ذاتي على الريب في صحة قراءاتي الأولى .. و بينما أنا بين الاضطراب و الذهول .. قلتُ اقرأ .. فارتعش لساني .. قلت اقرأ .. فارتبت ... قلت اقرأ باسم النحاسي الأعظم أنه " يجيء بعد أزمنة ثلاثة تكون غابرة .. واحد من أحفاد إخوانكم .. يقرأ ما لا يُقرأ .. يكون صعلوكاً مجتهداً يبحث عن مجدكم .. ثم يُجّدف بالنحاسي الأعظم .. فطوبى لمن أطلعه سرائر الأمور .. ثم ألبسه الطيلسان و أسكنه اُللجّة .. الديمومة للنحاسي الأعظم "

النحاسية الأولى : الصف الأول : السطر الأول .

و ما كدتُ أنهي قراءتي حتى ظننت " هرمس" قد تَلَبّسني .. انطلق لساني من مخدعه دونما جدال مني .. فأخذت أتابعه بقلمي سريعاً و كتبتُ ما قلتُ .. أن السطر السابع من الصف الأول من النحاسية الأولى يؤكد أنه : " عندما تكف الحياة عن طهو الموت .. يستعيد النحاسيون ذكرياتهم من تخوم الكتب يشدّون أعجازهم فتستقيم ظهورهم .. عندها يتّزرون بحكمة الحقيقة "..

عندها ارتج لساني فاهتززت .. قال اقرأ فقلت أنه : أنا الملك ابن الملوك .. نقي العروق .. سليل الآلهة .. فلما أعلنتُ ذلك في ذاتي ذكّرني بعورة أمي فثرت و اشتد غيظي .. ثم صمَتُّ .. فجاء الصوت الجرسي من عمق صارخاً أنّ :

" ملوكاً و رؤساءً حمقى أصنعهم فوق رؤوسكم .. فإما يأفلون أو تأفل أتون بكارتكم .. عليكم ببركاتي .. الديمومة لي.."

فقلت عظني أتعظ .. فتهادى الصوت رقيقاً .. و مسّني مساً طيباً أنْ :

" دائماً أيها النحاسيون ما تخلع نساؤكم طهارتهن و عفتهن عندما يخلعن أثوابهن .. هكذا قضيت عليكم داعرين و عاهرات للأبد .. أن تعشق أيها النحاسي الصالح كلباً أو قطة أو خنزيراً .. خير من أن تحب

امرأة .. لا خير في نحاسي أخلص لامرأة .. أَحِب صديقك .. باركتك .. فلأدم .."
و نادى المنادي " يا أهالي مدينة النحاس .. قد حان وقت غلق القماقم .. لتكتم أبخرتها دائماً .. فتصير عِلماً محرماً بإذن الملك النحاسي الأعظم .. و ليسكن حفيد إخوانكم لُجّة أبدية .. علّه يعلم ما لا يُعلم ....".
و كما تؤكد أخبار أهل الثقة .. أن كاتب السطور السابقة قد أصيب بهذيان و بَرَص و جنون .. سبقه إليه الكثيرون .. فليته لم يقرأ ما لا يُقرأ ، بل لعلّه علم ما لا يُعلم .. فابتُلي بثلاثة حيوات متتابعة .. لا يفرغ من الثالثة حتى يعود للأولى .. بل و ذهب بعض العالمين ببواطن الأمور و ظواهرها .. إلى أنه ترك رقيقة نحاسية منقوش عليها كلمة واحدة فقط .. كانت بلُغة النحاسيين .. و لم يعلم أحد معناها حتى اللحظة .. و أحسبني سأعلم ذلك .

أكتوبر 1999

آية التمهيد

" ارتجفوا .. إني آت .. نعم .. تبحثون عمّن تُمجدونه .. أيها الأذناب اختبئوا بين الأفخاذ .. اندثروا .. أنا الكائن المُكّون كونكم .. أنتم بي و لي .. أو لا تكونوا .. ارتجفوا .. إني ناظر إليكم .."
آية التمهيد : السطر التمهيدي: الصف التمهيدي: النحاسية الأولى
عن أحمد بن ثروت عن أمه عن جدته عن جدها عن صديقه - و كان آخر من جرت في عروقه دماء نحاسية – أنه قال : خير ما أبدأ به حديثي ، الدعاء بخلود النحاسي الأعظم فوق عرشه طول الدهر، ثم ما عليَّ إلا تلاوة آيته الأثيرة " دائم أنا بين ضلوعكم للأبد ، مُخلّد بذكركم لي ، أنتم أترابي و عيالي .. اذكروني أباركك .."
السطر السابع بعد الألف : الصف التاسع : النحاسية التاسعة
ثم استوى فوق الحصيرة و التفت نحو الحاضرين ... و تنحنح و سعل .. ثم استقام ظهره و قال : كان النحاسيون زُرّاعاً و رعاة أكفاء .. لم تقف في طريقهم أرض جرداء أو نعجة ضامرة .. فقد كانوا قوماً يحسنون الصناعات و يتقنون فنون الكلام و ضروب الحكمة .. أخذوا ذلك عن أعظمهم " النحاسي الأول" .. فلم يسبقهم مخلوق في هذا - غير ذلك الغراب الأسود- و كان ليليّ السواد .. ذا منقار أحمر .. شديد الحمرة .. قد امتلك أصول الحكمة و الدهاء و الإخلاص ، و اجتمعت بين جناحيه لغات العالم السفلي و العلوي و الأوسط .. قبل أن النحاسي الأعظم أهدى ملك ملوك " سيين و ايلفنتين" قمقماً نحاسياً أحمراً به ثلاثون ماردا و عفريتاً يفعلون ما يؤمرون ، فأهداه الملك هذا الغراب .. بعثه مع رسول و رسالة .. فأما الرسول فلم يصل لسبب لا يعلمه إلا خلصاء النحاسي الأعظم .. و أما الرسالة فجاء بها .." خبرتُ أيها النحاسي الأعظم الأجّل حكايتك مع أولياء عهدك الثلاثة ، فقلتُ هذا الغراب يحل محلهم و يُبطل عادتك الحميدة في عقابهم – حقناً للرؤوس النحاسية فلا تُخّزنها أبداً- .. بقيتَ للنحاسيين ، و سلام مني حتى اللقا " ..فرأرأ النحاسي في الرسالة .. ثم جمع دهاقنة الحواري النحاسية .. فكأنها ليلة دهماء .. ثم قعد من ساعته ينظر نحوهم بجلال عينه.. و كانوا يفرحون بجمعهم عند النحاسي الأعظم .. فزال الفرح و زاد الوجل .. فكأن دهليزاً ضيقاً سُدّت نهايته كان ملاذ آبق اصطاد سمكة عنوة ، فلحقته عفاريت النحاسي الأعظم .. كأن هذا الدهليز احتواهم ، موشكاً أن تلتقي ضفتاه فوق عظامهم .. و الصمت سائل بين الضلوع ..
و النحاسي الأعظم راح و جاء و نخنخ بين الدهاقنة .. فمن امتلأ أنفُه نخامةً ابتلعها .. و من استحالت رأسه رأسَ أتان حملت جحشين في أحشائها .. و من غرقت سراويله في ماء مالح ذي رائحة .. و من صَمَتَ فحسب .. كل دُهقان حسب خِلقته .. و ما لبث الصمت أن استحال ضجيجاً .. صرخات عظيمة من دماغ النحاسي الأجّل .. فكانت رجفة هائلة عمّت السماء و الثرى .. قيل أنها ظلت ألف سنة إلا تسعا.. و أذرعة الدهاقنة مفرودة ، لا تستطيع انثناءً .. قيل كانوا ثلاثة دهاقنة أو خمسة أو سبعة .. و ثامنهم النحاسي الأجّل يدمدم .ز ثم استقر و سكن .. فسكن الجمع .. بعدها ارتاح فوق عرشه ، و أمر بقبول الهدية .. ذلك الغراب الذي رافقه معظم الدهر .. قبل أن يكتشف خيانته - و كان ذلك صدفة لم تجتمع أركانها في أزمنة غابرة و أحسبها لا تتحد في أزمنة لاحقة - .. و يزعم بعض أجدادي النحاسيين الموثوق في صدقهم - و ذلك لكونهم أجدادي – يزعمون أن الغراب كان خائناً منذ البداية .. لكّن خيانته كانت تُرّسخ عرش النحاسي الأكبر .. و لمّا تيقن النحاسي الأول أن شدة الرسوخ تُسّهل الكسر ، و أن النحاسيين بطبقاتهم الثلاثة – الفقيرة و الفقيرة جداً و شديدة الفقر – قد ملّوا منظره .. و زادهم دوام شكله غضباً .. أمر بذبح غرابه المحبوب و ولي عهده الأبدي .. علّ النحاسيين ينشغلون بالبحث في سبب مقتله عن البحث في هيئة معيشتهم .. لكن الكيل فاض .. و الغضب زاد .. فأطلق المغرضون الشائعات عم حاكم يقتل ولي عهده المحبوب.. فكيف بعبيده المبغضين .. عندها لم يجد النحاسي الأول مفرّاً من إطلاق عفاريته و مَرَدته و فتح القماقم جميعها ، غير أن ما فعله المَرَدة و العفاريت كان عجيباً بحق ..

و هنا تصلّب جسد آخر النحاسيين و سقط فوق الحصيرة .. فما كان من جد جدتي إلا أن غسّله بعد أن أبدل ملابسه .. و صلّى عليه الجميع سريعاً .....

يناير 2000

عندما تقرر خلق سماء..

من الأسئلة و التعجبات ...

سَيُشيدّون هيكلاً يتسلقونه .....

ثم يبصقون لأعلى .....

فتُغرقهم بصقاتُهم .

1-تفاصيل أخرى

2-التصاق

3-بُرص في وضع الصلَب

4- هنا ضجيج

5- مأوى

6- مأوى " كتابة أخرى "

تفاصيل أخرى

"1" التفصيلة الأولى للعجوز ..

يدفع عربته اليدوية بين حواري المدينة .. تحيطه ببعض مناسكها التقائية .. هؤلاء الأطفال المُتْربين ذووا الشعور المهوشة قد انتُزعت طفولتهم .. و كأنما تعمّدوا تكرار دورته الحياتية .. تتهادى العربة و يتهادى خلفها بجوار بائعة المناديل الرخيصة .. ترد تحيته العابرة بأحسن منها ..

- ساحةُ الله و بركاته .. اتفضل يا حاج ..

كان سطح العربة المتسلخ فارغاً ، إلا من بعض حبّات " الحرنكش" التي طبعت لونها فوق وجهه الشاحب .. يُلقي بعينيه – كالعادة- فوق هذين الكعبين الحمراوين -سابقاً- المغطيان -حالياً - بطبقة روث عشوائي .. كعبا " الغالية" التي تُناجي دجاجاتها الخمس.. تنزلق يداه بانسيابية نحو كيس النقود ، القابع وسط ظلام تجويف

العربة السفلي .. منكمشاً كان .. تندفع يداه داخل الكيس القماشي فيزداد انكماشاً ..
- .. معليهش يا أستاذ .. مافيش فكه .. و لا مجمّد ..
توقفت العربة الخشبية في نهاية الزقاق.. أمام الباب الصاج تماماً .. و كأنها تعلم مرقدها .. توقف هو خلفها .. يعلن عن حضوره بصوت ارتطام كفيّه ببعضهما في إيقاع منتظم و متصاعد .. استيقظت زوجته و هي تدعك عينيها في خمول قد علا وجهها الخمسيني .. أزاحت الجلباب البيتي من فوق جسدها ، و هي تتفل بين تكويرتي صدرها المتتوئمتين ..
- طيب يا راجل .. مسروع على إيه ؟ !!

"2" تفصيلة الابنة البكرية ..
السواد يغطي جلبابها و كفيّها .. الصدأ يعلو وجهها الوردي.. يتأرجح الإنهاك بين عضلات يديها .. تهبُ البابور أنفاساً قد استدانتها من حويصلاتها الرئوية .. يعتلي طفلها المعجون بماء العفاريت ظهرها .. تحيط يداه القزميتان رقبتها .. تنتفخ أوداجها .. يحمّر وجهها بشدة .. فبدا الصدأ و لونها الوردي و الاحمرار الناتج عن الضغط ، كمحددات وجه أسطوري بشع .. تُلقي بعنقها للخلف ، فيندفع الصغير ساقطاً على ظهره يصرخ .. يبكي.. يمسح ماء عينيه بكفه الصغير .. ثم يكرر المحاولة ..
- يا أولاد المراكيب .. تعالي شيلي أخوكي يا بنت الكلب ..
- يعني أسيب مذاكرتي ؟..
.... يكرر الطفل محاولاته .. صرخاته .. بكائه ...
.. يمسح دموعها بيده الضخمة .. يسحب قدميه نحو الحصيرة الساكنة بجوار الحائط .. يستند الجدارَ بظهره .. يحتشد وجهه بِهَمّ أزلي ..
- لِمّي العيال و خُديهم على عشة أبوكي ..
- مالك يا سيدي و تاج راسي ..
- سيبيني .. عايز أموت .. لوحدي..
- بعيد الشر عليك .. إن شا الله اللي يكرهك ...
يعّب حموضة الأيام في صمت وسط رأسه .. لقد اعتاد اقتطاع اللحظات من أطرافها .. مشدوهاً و مادّاً يديه بحذر غير عادي .. فليس مباح له أن يضحك .. أن يحلم .. أن .. يموت وحده .. يزفر زئيره المحطم ..
- إنتي.. طالق ..
- .....
"3" تفصيلة الابن ...
كان نصف جسده العلوي مثنياً تماماً .. التحمت رأسه " براديتير" السيارة ال B.M.W .. استمر الوضع الساكن لدقائق و كأنما قد حولته إحدى إلاهات الإغريق تمثالاً أبدياً .. يُخرج " الراديتير" بعيداً عن فم السيارة المفتوح ..
- حتة لحام صغيرة يا باشا .. ربنا يخلي لك الأموره .. عربيه لُقطه .. ساقان بيضاوان قد انحسر القميص الأسود عند منتصفهما .. ثنيتا الركبتين يُلهبانه .. قد اختلط لَهَب ذكورته بلهب مسدس اللحام .. يعتصر مسدسه بقوة .. يقذف لهيبه وسط عراء المكان .. " إن ركوبها لهو ركوب عالم بأسره".. تلتف الساقان حول عنقه .. تلتصق الثنيتان بِعِرْقَيْ رقبته .. عيناه مثبتتان بصمغ الغريزة الأولى .. فوق الساقين تماماً ..
- ولد سافل .. يِطِّرِد حالاً .. أو أقفل لك الورشة .. و أدّخلّك السجن ..
"4" تفصيلة ناقصة..
.....
.....
.....
.....
.....
"5" تفصيلة العجوز .. مرّة أخرى ..
كانت المدينة قد خططت لنفسها أن تنام مبكراً عند أفول آخر شعاع ليلي .. تنغرز قدماه في الأرض كمسمارين .. ملتصقاً بالعربة كان .. تجرّه خلفها .. " يا خيبتك يا سيد .. البت اتطّلقت و راجعة لك بخمس عيال .. يا ريتك ما جوزتها و سِبتها مِتلأحه في العشه .. أهو كنت هَتأكل بطن واحده .. جوزها اتجنن ....." توقفه فتاة كالربيع .. طويلة و مشرقة بوجه طفلة .. يحملها جسد امرأة ...
- عايزه حرنكش..
تلاحقها جثة ضخمة .. قد بدت آثار الانفتاح الخالدة فوق الجثة .. أربعة خواتم ذهبية في كل كف .. بطن ممتد حتى الأفق .. يخرج محفظته المتخمة بالأوراق الخضراء و الحمراء و الزرقاء ..
- إديها بربع..
تلتصق الفتاة بشبح الجثة .. تلاحقه .. تلمح عيناه الشريدتان المحفظة المتخمة و قد سقطت أمام عجلة العربة الخلفية .. يلتقطها بسرعة ..
- يا باشا ..
كان ينتزع مسماريه من الأرض انتزاعاً ..
- يا باشا ..
عادةً ما تخشى الأشباح تلك المسامير المغروسة .. المُنتَزَعة ..
اندفعت السيارة نحوه بعنف ..
- حتى الواد بخته مال .. و اتطرد م الشغل ... يا باشا ...
كانت السيارة B.M.W
"6" ربما .. تفصيلة أخيرة ..

توقف جسده المكدود عن الحركة .. مخصّبة ارض الموقعة ببقع ضئيلة لدمه الشاحب .. مغروسة إحدى ساقيه .. و الأخرى مرفوعة نحو السماء تتساءل في صمت .. هذيان الواقفين يكشف تلك الأوعية الهزلية التي تعلو رقابهم ..

- حد يغطيه يا جماعة ..

ثلاث مئة دقيقة .. لم تكف لتحلله .. تتوقف عربة الإسعاف أمام رأسه تماماً ..

- ما نقدرش نشيله .. ما لناش علاقة بالأموات ..

صوت " سارينة" الإسعاف يعزف ترنيماته الراقصة..

- كان معاه محفظه مليانه على آخرها .. الظاهر حرامي .. ياللا .. ف داهية ..

تعرجات يده المعروقة تُخرج لسانه .. تجذبه بعنف .. تلقي به أمام الشبح تماماً ..

- يا باااااااشا ....

مارس 1999

التصاق

تدهس أصابعي عجيزة السيجارة وسْط تقعيرة المنفضة.. ينبعث الدخان من فمي هادئاً يُطيّر " الطفيه" .. فتهبط فوق المدينة المحزونة .. رمادية يا " بلقاس " و مُنجبة للفقر و العباقرة .. أسراب الحناطير الزاحفة كقطيع النمل الأبيض تولول في صخب ..

- كربج ورا ..

لسعات الكرابيج هادرة ، فرقعاتها تسلخ جلد المدينة .. حينها تتلملم البيوت .. مشبعة

بالطين و الكبرياء .. و الصمت يمارس سطوته .. الساعة تخطت الثامنة .. و المقابر في

أول البلدة .. سيدٌ أيها السكوت حتى ساعات الصباح المقبل يوماً .. لا يُقلق خلوتك نباح

أو نعيق .. فأُجاري خطوي وسط السكون .. الماء القذر يعانق جوربيّ .. لم يُرعشني ..

أجرؤ يوماً على النظر نحو المقابر نهاراً .. أخاف العفاريت و الحارات المسدودة .. و كلاب

المقابر سوداء .. لعينيها بريق الموت .. الموت .. يموت .. ميّت .. ما معنى ذلك كله .. ما معنى أن الهلاك حقيقة أبدية .. تلك العرائس تتوق للخروج .. الكابوس أزلي .. و الحالم لا يهمه شيء .. فلا التزام و لا زيف .. إنما حقيقة .. بينما المؤلف جالس في هدوء .. يترقب محاولات شخوصه الهزلية .. الأدوار ملفقة .. صامت يترقب .. و المنحوتات تتأرجح بين المعنى ..المعنى يتأرجح بين الرؤوس .. الرؤوس معلقة فوق الرقاب .. نحيلة بارزة العروق .. و الأجساد طعام ديدان الأرض .. الأرض كروية .. الكرة " البلاستيك " تلتصق بقدميه دائماً ..فيُهديني انفراداً بالمرمى الخالي .. أحرز هدفاً .. أحتضنه .. ملتصقَيْن دائماً .. نقتسم اللقيمات و أعقاب السجائر .. نقتسم الحزن و الفتيات .. أبيضٌ طويل بعينين زرقاوين .. و أسودٌ قصير نحيف .. انبعثت من إبطيه يوماً رائحة البُن المُخلّط بالعرق ، فطردته من البيت .. عندها انسحق مادّاً يديه في خذلان .. و الكلمات راكدة .. فخلع قميصه رافعاً ذراعه .. كان جرحاً ألقم بُنّاً ليمنع النزف .. فمددت لساني مطفئاً السيجارة فوق طرفه .. ثم التصقنا .. واحدٌ كالتراب هشٌ رقيق .. واحدٌ كالماء منساب بين الجميع .. و التصقنا .. صلصال كالفخار .. يومض بحياة ما ..بينما المقابر باسطةٌ الأذرعة .. ملقية خيوطها الرقيقة حول جسده .. تسحبه في رفق .. و أنا صاخباً حادّاً أتبعه .. أروم الصحبة .. لكّن نسج الخيوط حوله وحده .. إن تقدّم اخترق .. إن تقدّمتُ افترقت .. و الله إنّا ملتصقان .. و الله إنّا واحد .. واحدٌ صلب قوي .. واحدٌ هاديء لين .. " شعر منكوش.. كشاعر مثلاً .. أليس كذلك .. السجائر السوبر تبدو أطول من الزمن نفسه .."

بينما القش متقاطع مع الكراسي الخيزران ... أرمي ثِقل الجسد فوق أصابع القدم .. عندها يُذيب الملح الوجه .. فتحتضنني أمك .. تبكينا .. نحتتنا سوياً ..

- كان ابن موت ...

أللموت ابن حقاً؟ يحبو الابن .. يضحك .. يداعبه الجميع .. فيلتصق بهم .. يكبر .. يصبح موتاً .

يناير 2000

برص في وضع الصَلْبْ

-1

زحزح قبعة الرأس عن البيضة الملساء التي تعلو رقبته ..لسعته نقطة ماء صاروخية وسْط رأسه تماماً .. تبعتها نقاط أخرى عديدة ،مما زاد متعته بذلك الجو البدء شتوي الرائع .. صنع من كفيّه دائرة مغلقة أشعل بداخلها عود ثقابه الأخير .. أخرج من فتحتي أنفه عموداً دخانياً كثيفاً تَبِعَهُ بدفقات متتابعة من فمه .. سمع صوت صراخ مكتوم ما بين نعل حذائه و أسفلت شارع " الجمهورية" الليلي ..تباطأت خطواته و كأنما نبهه الصوت المكتوم إلى وجوب الحذر .. تدافعت بداخله إرهاصات عدّة و صور متتالية .. أبيه الثائر دائماً .. رسوبه في الجامعة لسنوات عديدة .. زفاف حبيبته لأعّز أصدقائه .. لم يُبد اهتماماً لذلك السيل الضوئي الذي غمر جسده فجأة .. صوت عميق ...

- بطاقتك .....

استمر في السير و التذكر .. " الضربة التي لا تقتلك تزيدك قوة " ..... أوقفته رنّة اصطدام يدٍ غليظة بقفاه .. حرّك قدمه للأمام ... " ملعون أبو الفن اللي بالشكل ده يا أخي" .. أيقظه الصوت الغليظ ...

-بطاقتك يا حيوان يا ابن القذرة ...

توالى السباب تصاعدياً ... نظر للضابط الصغير السن و الرتبة .. " سَلِّم نفسك يا سعيد يا مهران ... المكان كلّه محاصر ...".....

- حتة فيلم ...

ابتسم .. ضحك .. ضربة أخرى أطارت نظارته و بقية كرامته بعيداً .. لم يهتم .. فكثيراً ما طارتا بعيداً.. الصوت الصبياني للضابط ...

- رَكِّبوه ..

حملوه دونما مقاومة منه إلى " البوكس" ، متناوبين الركل و الصفع مع مؤثرات شتائمية محفوظة في ذاكرته و ذاكرتهم ... ضحك بشدة .. انفلت " البوكس" من مكانه .

-2

صورتا الشارع المظلم و البُرْص المصلوب كانتا أول ما تذكر حين استيقظ في غرفة الحبس .. طالعته ظلمة تفوق مثيلتها في ذلك الشارع القديم بمراحل .. ارتكن أحد الجدران لاصقاً ركبتيه كنوع من موروثات الاستسلام .. " يا ابني جاري الجو .. الباب اللي يجي لك منه الريح ..." .. لم تترك شفته السفلى مكانها طوال التحقيق الذي أُجري معه في غرفة المعاون ..

- حدّ مدّ إيده عليك ؟

- .....

- حدّ مَصّاك غصب عنّك ع الورق ده ؟

- .....

ضحك بشدة .. تجاوبت أصداء ضحكاته في جنبات قاعة المحكمة .. تمنّى الجلوس فوق كفة الميزان المرتفعة عن رفيقتها ... فوق رأس القاضي تماماً ..

- الاعتراف سيد الأدلة ..

- .....

حين سأله المفتي عن آخر أمنياته ، ابتسم ... ضحك ...

- عايز .. أ ق ل ع .. الب ن ط لووووون .....

أخيراً أخرجت شفتاه صوتاً ما .. تعجّب الجميع ..

- اقلعه !!!

أنزل بنطاله و ما أسفله .. قذف الجميع بمائه ..

- نِفسي أشتغل .. في .. المطافي .....

تدافعوا ليوقفونه .. استسلم .. تدلّت جثته و تأرجحت كبندول ساعة حائط خَرِبة .. حينما قطع الطبيب الشرعي أصابعه القابضة على شيءٍ ما .. ظهرت بينها و بين باطن كفه ، بقايا جثة متحللة لبُرْص ... كان راقداً في وضع الصَلْب .

نوفمبر 1998

هنا ضجيج

-1

هكذا مرّة واحدة .. احتضنت المقاهي زبائنها .. و الشوارع ضجرة من العابرين .. بينما كان وحيداً .. سانداً فخذه الأيسر بقدمه المثنية .. فوق ساق الشجرة الميتة كأريكة في زاوية الغرفة اليتيمة .. من كتبه و أشيائه الصغيرة و أصحابه صنع هرماً .. تأمّله ثم جلس فوقه يراقب الكون ... أحياناً كان هذا الهرم زجاجياً .. و أحياناً أخرى كان صلباً مصمتاً كرأسه .. و يتذكر انه هدمه مرات و بناه بالمقلوب .. كرأسه أيضاً .. أمّا فتاته فَمُركّب ليس جديداً عليه – رغم تعقيدها و تشابكها- .. كونها مثله تماماً .. كل واحد منهما زعم يوماً أنه أصل الحياة .. فهل كانت ثمة حياة أبداً ... عندما بات لا يعرف نفسه ، كان رذاذ المطر الواهن يتلاقى و بلاط الحجرة الهابط عند منتصفها .. المدينة تهبه الأفكار و القلق رغم مواراة الجدران الصفراء لمعالمها .. يضعها فوق المكتب البارد .. يتأملها ..فلا يجد حلولاً وسطى لأسئلته .. و ثديا فتاته الطفلان مطمئنيْن بين شعر صدره .. فخلع ارتباكه و انتظرها .. عبر مراثيها يواصل بحثه عنها .. يُقبّل أصابع قدميها .. و في إيهام تام يُلبسها وحدها إكليل الحقيقة .. ثم يغفو .. لكنه لا يرى أحلاماً وردية أو قصائد كما تمنى .. فأحباله الصوتية مُقّطعة و شفتاه ملتصقتان .. فيسمع نفسه صفيراً شاحباً .. و ها هي عجلات الثوار الحربية تتقدم دونه .. بالأحجار الصغيرة و الحصى يقذفها .. فلا يجد سوى فتاته في انتظاره .. متوسدة الكرة الأرضية و تومىء له .. فيمتطيها كفارس وهمي .. و لسانه مُتوج بالخمر الرديئة سابقاً جسده نحو المحرمات و سباب الحُكّام ..حزيناً فوق بلاط الحجرة .. مُشعلاً السيجارة تلو الكلمة تلو الفكرة ..من بقايا الشاي الساكن في الأكواب يخلق بحراً و فتاة بعينين خضراوين .. يرسم فوق البحر وطناً لا يحكمه الله .. ليس فيه حارات قذرة أو أطفال ملوثين .. ثم يبتسم.

-2

أمام الله يجعلُ كل مؤخرات الحكام إقطاعيات للثوار .. بكل قوته يأخذ فم فتاته الصغيرة في قلبه .. يرقدان فوق بطنيهما و يزحفان مُسلسلين بأجراس كنائس العالم كلها .. فيختنق كارهي البوح و الشعوب .. و عند الفجر كانت عينا فتاته امتداد الصخب .. الشوارع مزيج الدمع و الحناجر .. و هناك القطارات ساحبةً النيل بلا مزلقانات أو خماسين .. في هذا القُداس تخجل الساعات من دقّاتها التافهة الخافتة .. فتضج أكثر .. اللافتات تُعلن انتصار الوطن .. وطنٌ بالمجان .. لحظة انتفاخ الأوراق البيضاء بين يديه انهمر في الحلم .. فيُعدّل وضع الكتب فوق كراسي " الأنتريه" البالية .. لتأخذه الحروف لزاويا الغرفة المليئة بأحزانه و أصدقائه .. يُلوّن أركانها بروح طفل في الثالثة و العشرين .

-3

زرع أبوه يوماً حكايات ثورات وهميةٍ شخوصاً عارية .. كان يطّن عن سنوات ستة بين الرمال .. ثملاً بانزوائه خلف الهاتف العسكري .. و يحسب الولد راقداً لا يزال في أحشاء امرأته .. بينما كان يربي دود القز و يسمع عن عبور جيش كامل بلا أبيه .. فارس الهاتف الصامت .. يحكي عن جثث لزجة و أسنان مكسورة .. يحكي عن طوابير الأسرى و شظية استقرت في ركبته .. و الولد منكسر الرأس و القلم .. كثير من الدم و التراب يخبط في ذاكرة الرجل .. حيث انعقد لسانه كربابة .. فأهداه الله لساناً آخر في رأسه .

-4

اضطربت عيناه بين لافتات محطات المترو .. تقذفه هنا أو هناك .. فينزلق نعل حذائه فوق السلالم الكهربائية .. حذاء مشقوق من الطرفين كمركب صيد بالٍ ، يحمل الجسد التافه .. و جريان دمه نحو قلبه يشدّه لأول السلم المواجه لظهر التمثال المترب .. شارع " طلعت حرب" الوحيد الذي يعشقه و يحفظه .. يدّعي الأهمية و التأمل الجديرين بمثقف يمتطي " زهرة البستان" .. يداعب رفيقته بمبسم الشيشة فتخفق نحو أرض المقهى المترع بالمومسات .. و الليلة لن تُنسى .. وحدهما في هذا الكون بين شطحات القاهرة المختلة .. و ليحيا الاثنان لسنوات على أديم الصعلكة فوق كوبري " قصر النيل " .. و ما كان حذره لِيُخمد نشوته .. خلف الجنيهات الخمسة الزائدة عن أجر الحجرة ذات السرير الواحد ؛ استنشق الحياة من التواءة عنقها .. حلمة ثديها المُشّرب اللدن تمنحه البراءة فيمتصها عميقاً .. ثم يضغطها بأسنانه رقيقاً فتهبه آهات الخلق الجديد .. كونُه ارتقاها بجسده لا ينفي امتزاج روحيهما .. يرتجف الدم في عروقها فيتمغنطان .. حالَ انتهائه كان مبللاً بالعرق الحارق للخربشات الوردية على ظهره .. فانتشى .. و تساقطت أعضاؤها كضباب خفيف فوق نصبه التذكاري .. تباعدت و تلاقت .. ثم ارتخى فتوجته ملكاً في كفها الصغير .. و قبّلتهُ كعصفور يرتعش .. لكنّ دقّات صاحب الغرفة الملكية أيقظته .. فاحتضنها نحو البوابة الحديدية .. منحنى الشارع أسود بلا كائنات حية .. و هو يمشي فقط .. بلا تأملات أو أفكار .. لا تزعجه كلاب الليل أو لافتات مبايعة الرئيس الجديد القديم .. فقط يسير .. فقط ينظر نحو الكون ليحدد مصطلحات أو أصوات تخص أحدهم او تخصه .. ثم يحشره في آخر عربات قطار " المنصورة " .. و نقطتين من دمائها قد جفّا فوق عضوه .

-5

عندما تهّب ذكرى البطولة ينتشي صاحب الذكرى .. يُفرغها في رؤوس الآخرين .. و الآخرون يتثنون حالمين .. فيُسمهم القاهري أنفسهم .. حيث البطولة حق الأبطال .. حيث الزعامة حق الزعماء .. حيث القهر حق المقهورين .. فيحمدون الله و يُكبّرونه .. إذ يمتطي صاحب الذكرى المنبر

زاعقاً زعقة الفاتحين .. فلا جلباب أبيض نظيف سوى جلبابه .. و لا لحية تشرّبت الحنّة البرتقالية غير لحيته .. فحقٌ له أن يتشبث بأرابيسك الدرابزين .. ناظراً في أعين الخراف المقرفصة مباشرة .. مبهورون بحنجرته السالكة رغم أنفاس جوزة الصباح و المساء .. مشمئزون من أنفسهم الكسلى ..أمّا صاحب الذكرى فسئم الخراف و رؤوسها الفارغة .. لا يهمه غير هذا السارح في أقفية المصلين .. عاجز عن إقناعه بجدوى سنوات ستة فوق الرمال اللزجة .. و الولد هارّاً رأسه ساخراً .. يُضيّق عينيه أكثر كالنائمين .. هذا الولد النطفة الذي أودعه فرْج امرأته .. لولا رجاحة عقله لكان ذو العينين الضيقتين بقعةً فوق ملاءة سرير أو نقطة سابحة بين مياه المجاري القذرة .. فأودع ماءه بعده في مؤخرة امرأته كي لا يحصد عينين ضيقتين و دماغاً لاسعة أخرى .. و يظل يزعق موزعاً بركات رذاذ لعابه فوق سامعي الخطبة .. مؤرجحاً عينيه في امتداد الفراغ أمامه .. يتلوى صوته بين هبوط مطمئن و صراخ مبحوح .. فوق الجمع تنزّل رنين الحكمة المنتقاة .. بَكّاء كعُقاب عجوز يسترحم خرافه .. و الكل يلمعون بوهج الجمعة و قدسية البساط الأخضر لبيت الله .. إلا الولد المقبوض في طقوس هزلية .. ينزع نفسه نحو الخارج .. تاركاً حذاءه.

يوليو 2000

مأوى

خمسون عاماً من التسكع وسط الحارت المهمشة .. خمسون عاماً من التقلب بين أحضان القاذورات و العفن .. مهجور من الجميع .. حتى رَحِم أمك .. ذلك المأوى الدفيء قد ازدراك .. معقولة تلك المعادلة.. أمك لم تحتمل عويلك سوى أشهر سبعة .. فكيف يحتويك الآخرون ؟ .. خمسون عاماً من التأرجح بين جميع المهن المنحطة .. ترنحت رأسك دائماً تحت بصاق الآخرين .. التحفتَ بتهكماتهم .. تعلم فعلاً أن الله أوجدك .. لكنك لم تناقشه أبداً .. و كأنك لم تعلم بوجوده سوى اليوم .. حتماً خلقك، و حتماً لن يزدريك .. رائعٌ جداً أن تنام في كنفه .. فبيوته عديدة و لن يضيره أن تتخذ ركناً " متر ف متر " من أحدها .. لن تحتاج لخلع نعليك فلست بالواد المقدس .. و ليس لك نعلين حقيقةً .. طرية أرض الرب.. لا تلتصق بقدميك ، فتتوسدُ ذراعكَ في حميمية مفتقَدة .. خمسون عاماً من الغباء .. ربما لم تنتبه لذلك أبداً .. أن تنام في كنف الرب .. يطعمك من طعامه .. يسقيك عسلاً و خمراً .. خمسون عاماً من الاستيقاظ .. لكنك لن تضاجع الحور هنا .. إنهن ينتظرنك في فراش الرب .. متوسدات تلك الأرائك الخضراء .. عيونهن شغوفة بلقائك .. أجسادهن مفروشات لك .. لك وحدك .

فلتكمل لعبة صبرك المبتكرة .. اللعنة على أصحاب العباءات الخضراء و اللحى .. واردٌ أن نور الله يحميهم .. لأنهم خلفاؤه في بيوته .. لكنهم يزعجونك على نحو ما .. نَم في هدوء و استكن .. فليس لأحد أن يتعرض لضيف الخالق بسوء .. من الممكن أن يتسربوا نحوك بهالاتهم .. أنه تنفرج شفاههم بزاوية مستقيمة .. معلنةً وجوب خروجك من المسجد حالاً .. سُيور لعابك المتقطعة تسيل فوق ذقنك .. تبلل معطفك ذا الألوان الغامقة العديدة .. مع ذلك فبريق عينيك لا يخيف أحداً سواك .. مع ذلك يؤكدون وجوب خروجك .. مع ذلك تعلن أنك ستنام .. فيُقذف جسدك المنحول خارجاً .. مصحوباً بلعنة و تكبيرة و تسبيحة .. أيوافق الرب حينها .. تلملم أعضاءك المبعثرة .. تحاول الهروب منك .. فتحتويها غصباً .. و كأن الله أوجدك ليمتهنك .. جائز أن تمتهن ذاتك الجميع .. واردٌ أن تقدسهم .. و لم يقدسك أحد أبداً .. امتهنك شيخ الجامع .. ألقاك فوق برودة الأسفلت تماماً .. فلم تتأوه .. لم تثر على الله .. لم تستجده .. فقط ستنتزع ضلوع قفصك الصدري .. سترصها أمامك .. و تصلها بحبلك السُري المهتريء .. ثم تغمسها في دمائك الصفراء .. و تحاول ربط كلماتك بها .. فتنتثر شظايا .. علّها تكون بذوراً عقيمة .. جائز أن تندفع نحو هذا الطفل الملتصق بذراع أمه .. جائز أن تسلب رغيف خبزه الملفوف .. المبتل بلعابه .. ربما تزدرده كاملاً .. فتصرخ أمه .. لكن صرخات معدتك ستكون أكثر صخباً .. ستعلو ضجتك الجميع .. عندها لن يغضب الطفل .. فقط سيعطيك رغيفاً آخر .. مبللٌ ذلك الرغيف بدهشته ، فتطلق كلماتك المحاصرة نحو السماء مباشرةً .. ستحلّق بعيداً بعيداً نحو العرش .. ستكون عصافير و غِرباناً تخفق أجنحتها بعنف .. فترسل هواءً بارداً يزيد الرب سروراً .. تصل كلماتك لله .. فتبدو أنت خاوياً .. فارغة ضلوعك من آثار الكلام و الخبز .. مفتت هيكلك العظمي و منحدر جوار الصندوق الضخم .. فتنسّل أشعة الدفء الباقية من ساعات النهار الماضية ، داخل جسدك المنهك .. تطمئنك قليلاً .. و أنت استاتيكي حتى النهاية .. الصندوق خصب حقاً .. فتنفلت يداك في عنف و دقة داخله .. و لن تود إغلاق الضفتين أبداً فتسحب جثتها و قد ارتكز ثقلها فوق باطن كفيك .. و ستقرر أن تُفند أشياءك بجوار الصندوق حينما تخرج .. تؤكد أن النظام مهم جداً .. عندها سيبدو الليل طويلاً جداً .. بلا نهاية .. فذُبتَ في تراخيك لثوان .. معلق أنت بين امتداد القهر و الاستسلام .. ساهمٌ و محتبس داخل وحشتك الخاصة .. تلتفت نحو الله .. علّك ترتفع.

مايو – أغسطس 1999

مأوى "كتابة أخرى"

1_ أوفرتير :- اقرأ ما قرأتَ ..

ثلاثة دقّات بطيئة ...

2_ دراما حركية :-

لو أنك غضبت حين ألقاك شيخ الجامع فوق برودة الأسفلت تماماً .. لو أنك تأوهت .. لو أنك ثُرت على الله .. لو أنك لم تستجده أبداً .. طالما أن كلماتك المرعوشة مبتورة .. طالما أنها صارخة كعذاباتك .. منزوعة ضلوع قفصك الصدري .. متراصة أمامك .. فستصلها بحبلك السُري المهتريء مغموسة في دمائك الصفراء ..و ستحاول ربط كلماتك بها ..فتنتثر شظايا ..علّها تكون بذوراً عقيمة .. جائز أن تندفع نحو هذا الطفل الملتصق بذراع أمه جائز أن تسلب رغيف خبزه الملفوف .. المبتل بلعُابه .. ربما تزدرده كاملاً .. محتمل أن تصرخ أمه .. لكن صرخات معدتك ستكون أكثر صخباً .. ستعلو ضجتك الجميع .. غارساً رايتك في جمجمة أحدهم كرشق سكين في حجر أزلي ..

3_ مشهد بديل :-

مدهشٌ أنك لن تفعل هذا ..
فلن تغضب .. لن تتأوه .. لن تَثُر على الله .. فقط ستستجديه ..
- يا رب .....
ستنطلق كلماتك المحاصَرة نحو السماء مباشرة .. ستُحلّق بعيداً بعيداً نحو العرش ..ستكون عصافير و غِرباناً .. تخفق أجنحتها في عنف .. فتُرسل هواءً بارداً يزيد الرب سروراً .. تصل كلماتك لله .. فتبدو انت خاوياً .. فارغة ضلوعك من آثار الكلام أو الخبز .. و ستصبح لك القدرة على الغرق وسط نكهة الجوع المشبع بالحسرة .. هيكلك العظمي المفتت ينحدر جوار ذلك الصندوق الضخم .. حينئذٍ تنسّل أشعة الدفء الباقية – من ساعات النهار – داخل جسدك المنهك .. تسري داخلك .. تطمئنك قليلاً .. ساعة كاملة مرّت دون أن تغير وضعك الاستاتيكي .. عيناك ميتتان .. تنتفض فجأة و كأن عقرباً لدغك وسط رأسك المكدود .. أن تحاول تتبع مصدر اللدغة فأنت تُسقط ، بقايا أرغفة .. حبة طماطم فاسدة .. ربما قطعة من لباس داخلي لطفل في السادسة ..
- أحمدك يا رب
حينما تخرج تُفند أشياءك ..
- النظام أهم حاجة ...

4_ فنال :-

بدا الليل طويلاً جداً .. بلا نهاية ..
استمتعت بلذّة التملص .. ذُبت في تراخيك لثوان .. تملؤك المخاتلة كما لو كنت بقرة صفراء لم تجّر محراثاً قط .. و سيبلغ سوء الحظ مداه ..
حينئذٍ لا تخش عشوائيته ، حينما يرفعونك فوق المذبح المقدس ...

5_ مشهد تخميني .. كلاكيت للمرّة اللانهائية :-

راكور:- سبعة عقارب تدور عشوائياً وسط المزولة ...

خلفية موسيقية :
* أعرف بشر .. عِرفوني .. لأ ..
لأ ما عِرفونيش .. جِبلوني و جِبلتهم ..
بامدّ إيدي لك .. طَبْ ليه ما تِجبَلنيش ؟..

مجموعات كومبارس كثيرة .. ملتفة حول بعضها .. متلاصقة و متناثرة .. تهدر في هدوء صاخب ..... "
تاك تاك دوم "...

زووم مفاجيء على أجساد تتكون تدريجياً ،

بلا أذرعة .. بلا أرجل .. بلا رؤوس—**cut**

سبوّت إضاءة متحرك يُتابع جمجمة تتقاطر من خلفيتها دماء سوداء .....
cut

مونتاج :..... تم حذف المشهد كاملاً .

Black

* من أغنية " حدوتة مصرية" للشاعر :عبد الرحيم منصور

مايو-أغسطس 1999

عن

نباتات الأسفلت

نفسها

أحكي لكم ...

1-نباتات الأسفلت

2-فانتازيا الدوائر

3-حيثيات عودة المسيح

4- هيستيريا اللذة .. الموت .. المدن ..

نباتات الأسفلت

1- ملمح بدائي ..

تلك أجنحة الخيول بيضاء .. دافئة كالبنفسج .. تسعني بالكاد .. تسع الكون كلّه .. خفّاقة في هدوء .. و ذلك الوجه المنمنم أبيض حاد .. تنّزلت أعلاه شعيرات الرأس الناعمة .. لتسقط إحداها فوق عينه البُنية اليسرى .. فيزيحها خنصره الدقيق .. ثم تعود راحته الصغيرة سريعاً لتلتحم بذراع أمه .. قمحية نحيفة .. تصل آثار خياطة قديمة ما بين فتحة أنفها اليمنى و بداية شفتها العليا .. فتبتسم نحو الطفل ليطمئن .. كي تستمد من رجولته الغضّة سكوناً ما .. علّهما يعثران بذلك الوجه الغائب .. منحوتٌ فوق الذاكرة .. وحدهَا و الطفلُ الشقي كثير السباب .. كطفل مصري .. تدير المحل تماماً كرجل .. كامرأة مصرية .. ترتدي الجينز و تدق أخشاب

البراويز الرفيعة .. تُفاصل الزبائن أو تجادل مُدّرسة الولد في كونه ذكياً يسبق عمره .. بينما جريان السطور الإنجليزية فوق الشاشات الخضراء يُذهل الولد .. فيحاول فكّ شفراتها .. رنين الإذاعة الداخلية يُعلن اسم الغائب مسبوقاً بكلمتي " زوجة السيد " .. فيرتعش قلبها ..

-بابا هنا .. بينادي علينا ..

تحوم رقبتها في المكان .. فتُشكّل سلالم كهربائية و أرضاً ملساء .. تُشكّل بشراً بقطعتي ثياب بيضاء فقط .. ساكنين يُتمتمون .. يُلبّون نداء الرب .. تلتصق عيناه بالجسد الغائب .. استبدل "الشارلستون " بسروال داخلي أبيض رقيق .. استبدل القميص " المحلّاوي" بجلباب أبيض شفاف .. استحال الوجه القمحي الحاد أسمراً ممتلئاً .. و بروزٌ لدن وسط الجسد تماماً .. احتضن الولد ..رفعه عالياً ثم قبّله ..

-وحشتوني ..

2- ملمح توضيحي ..

تصهل الخيل أن " اصنع لنا أجنحة من عسل مُصفّى ..".. فانسال الارتياح بين خلاياه .. ذاب .. صراعاً خاضه ليُلحق الولد بالمدرسة انتهى بانتصاره ...

- لا نقبل أكثر من ثلاثة أجانب في الصف ..

و كان الولد يتساءل ...

- هوّ احنا أجانب ؟!

كان " أحمد منذر" السوري النحيف .. كان " أكرم " الفلسطيني ذو الوجه الأحمر .. و كان الولد ..

3- ملمح مدهش ..

آذان الخيول عالية عن الماء .. لا تصالح صفحته .. و مُدرس التاريخ غضب لأن " عادل إمام" أكّد في البرنامج أن جذوره فرعونية .. و قال المدرس :..

-لا فراعنة ... و لا عرب

حينها انفعل الولد .. فأصّر المدرس على إكمال حكاياته عن التاريخ الإسلامي ..و كان في وسعه تأكيد أن أسماء رؤساء مصر " محمد نجيب" و " محمد أنور السادات " و أن "جمال عبد الناصر" كافر لأنه حذف اسم الرسول من اسمه ..فبكى الولد ..

-أنا أنادي " احمد منذر " يا " منذر" .....

فابتسم المدرس ابتسامة حمراء أحاطت مادة التاريخ .. أحاطت دماغ الولد .. و تشكّلت كنزف يبحث عن شيء ما .. عن شخص ما .. عن مكان ما .. و كان حمّام المدرسة يختبئ فيه مع "منذر" و " أكرم" .. يخططون أو ينفعلون ..

-نُلصق صليباً فوق إليته ..

4-ملمحُ انفجاري ..

لامعة أرض الغرفة كلمعان عيني " مدرس التاريخ " .. صفراء تلك الجدران كأسنانه .. وحدهما .. فلا " أكرم" و لا " منذر " .. يُجلس الولد مقلوباً فوق الكرسي .. يربط أطرافه في هدوء بأطراف المقعد الخيزراني ..يحشو فمه قطناً و ثم يُلصق شفتيه "بالسيلوتب" .. غدا جلباب الولد الأبيض مختلطاً بصُفرة جسده .. فبدا كعصفور جزر أسطورية .. مزّق الرجل ما أسفل الجلباب .. فتقلّص جسد الولد كلّه .. مُبدداً انسياب الغرفة الصفراء .. كان في وُسع الرجل أن يركع خلف الولد .. يتلّمس الجسد المنمنم .. يُقبّله بشفتين كصيّار .. خفقات الجسدين تعلو دون صوت .. و لسانه امتد حتى النهاية .. لاعقاً اللحم الغضّ.. و مواء الولد يزيد حرارة المكان .. القطن انكمش بفعل اللعُاب الساخن .. فابتلعه الولد .. المواء حادٌ مرتفع .. فالتهب الرجل .. و قبض ذيل ثوبه بأسنانه الصفراء .. يظهر الولد التصق .. فارتعش الجسدان .. نقاط دماء ضئيلة .. تمددت كخلية بدائية .. افترشت أرض الغرفة .. كيُنبوعٍ تفجّرت تدريجياً .....

-ملابسك ..

الغُطرة – غطاء الرأس الصحراوي العتيق- هبطت فوق النزف .. امتصته .. ذاب بين نقاطها الحمراء .. ذاب الولد بين زملائه .. لا " أكرم" .. لا " منذر" .. بينما الخيول خرساء .. تُهمهم حوافرها حتى الانفجار ..

5-ملمح مختلف ..

أقفاص الفاكهة الملون تحيط المكان .. مزدحم بالرجال و الخضروات .. ليست نتاج تلك الأرض .. فالصحراء لا تُنبت سوى القدرة على المسير .. و الرجال يرتدون طواقيهم البيضاء تعلوها " الغُطر" بنقاطها الحمراء أو السوداء .. متحررين من " العِقال" – ذلك الخرطوم الأسود الدائري- فالمكان مزدحم ..بلا هواء يُطيّر أغطية الرأس .. و هو في الوسط تماماً .. تقبض يده كف الصغير بينما أحاط ذراعُها ذراعَه الأخرى .. انطلقت عيناها بين " التفاح الأمريكاني" و "الموز المستورد " و " البخارى " ...

-أمّال الجوافة بكام ؟

-جوافة ؟

فسقطت عيناها فوق حذائها الأرضي .. خَجِلة من سؤالها المُنبئ عن ريفية خصبة .. كعذراء تسأل عن كُنه العلاقات الزوجية .. بينما يمشيان بين الكراتين و رجال الصحراء .. كعاشقين يتنزهان في جنة الخلد .. للحظة خفق جسدها النحيل ..فانزوت عيناه نحو معصمها .. كانت تطوي حبة فاكهة بين أصابعها .. بينما حطّت راحة البائع فوق ظهر كفها .. تلَمّسها في رفق .. ضغط فوقها .. ثم غمز بعينه الواحدة نحوها .. التقت نظراته و نظرات البائع .. ذلك الصحراوي القح .. الذي بانت أسنانه المُطعّمة بسوادٍ ما .. كانت ظلال أجساد البائعين تحيطه .. فألصق كوع زوجته تحت إبطيه .. و مشى .. هرول و زوجته و الولد .. تلاحقهم ضحكات الصحراويين .. تصفعهم فوق أقفيتهم .. تُدّلك أجسادهم في عنف .. بينما الخيل جائعة .. لا تجد سوى روثها .. فتلعقه في صمت .....

6- ملمح عادي ..

ثلاثة مكعبات أسمنتية بألوان متناسقة ..و مساحات رملية واسعة .. يحيطها سور بيضاوي من أشجار النبق .. و كان الصف الأول المتوسط الفصل ألف مقسّماً بين ملعبي كرة القدم و السلة .. بينما الولد و "منذر" و "أكرم" في غرفة تنس الطاولة .. كان "منذر" و الولد يتبادلان الهزيمة و الانتصار .. يتفوقان على "أكرم" دائماً .. و هو مُحمّر الوجه .. سمين ذو حركة هامدة .. و الولد خفيف الحركة كالمنتصرين مثلاً ..

-عارف؟.. المصريين يِجِوا هنا منشان يشحتوا ..

فتصلّبت يدا الولد .. التصقت خطوط رأسه و ارتفع حاجباه ..

-عارف ؟.. كل الخرايط مكتوب عليها "إسرائيل " ..

فانكمش " منذر" في ملابسه .. توترت دماغه ..

-عارفين؟؟.. بَلكي نصير كلنا عرب ..

لم يكن الولد قادراً على الكلام .. رافعاً ذراعه لأعلى خلف باب حجرة المدير .. يستمع لتفاهاته حول شكوى " أكرم" .. يستمع لموعظة أبي " أكرم" عن صفات الطالب المثالي ؛ و مقارنتها بصفات ابنه ..و جسد السمين يتقلّص .. يتّز عرقاً .. و مُهر صغير يحلّق .. قد التصق جناحاه بمنخريه ليمنع صوتاً ما .. كان صوت المدير حاسماً ..

-أبوك يستلم ملفك ..

7- ملمح نهائي نوعاً ..

دوائر متتالية .. تضيق تدريجياً .. دائرة المباني يعلوها جنود العمليات الخاصة .. أسفلت الساحة الكبيرة ، انتشروا فيها بمدافعهم الرشاشة .. بأرديتهم الكابية .. حتى سطح " المسجد الكبير " و مئذنته اعتلتها تلك النقاط الداكنة .. و الحشد البشري متزاحم .. الكل متطلع نحو الكائن الأبيض .. نفس التكوين الإنساني ؛ لكنه أبيض زاهٍ .. راكعاً بزاوية قائمة .. و خلفه ذلك الزنجي العظيم .. لا اسم له غير " مسرور" .. كالمسلسلات التاريخية تماماً .. و كأنه ابن سلالة لا تنتهي .. و الدوائر لا تضيق أو تتسع حول الأبيض .. ينغز الزنجي الرقبةَ بسيفه الذي بحجم الولد .. فيرتد الأبيض للخلف .. عندها ينشطر قفاه عن السلسة الظهرية .. كحيوان ملدوغ تنتفض الرأس فوق الأسفلت المحبب .. بينما الأبيض احمّر فجأة .. كان الحشد يرى الأبيض أبيضاً .. و كان الولد و أبوه يعلمونه أسوداً .. طويل كأعمدة الإنارة .. يقترب كتفاه من أذنيه .. مخلوق من مخلوقات خط الاستواء يتحدث السودانية .. كشمبانزي يحمل طفرة جينية .. الفواصل بين كلماته تُوقف رذاذ لسانه المندفع .. كان يتحدث بلا فواصل .. كان اسمه " مالك" .. و لم يكن حزيناً بأي حال .. إنه الوحيد القادر على تبديد صمت الأسرة الصغيرة .. على إضحاكهم بلُغته المدغومة .. باهتزاز يديه الأطول من الولد .. تلك الاهتزازة العفوية المضحكة .. تلك الاهتزازة القاتلة .. قتلت الصبي المستهتر بسيارته الفخيمة .. و قتلته هو الآن .. قبله تذّكر قول الشرطي ..

-لا سعودي مستهتر .. الأجانب دوماً مخطئون ..

فتذكر الولد مدرس التاريخ .. و قال " مالك" للولد ..

-ذات أيام جلسنا فوق الخازوق ....

8- ملمحٌ ما ..

فرَسٌ كسحابة لن تمطر يوماً .. الأطراف أجنحة .. جناح نابت أعلى سلسلة الفرس الظهرية .. كهيئة "مالك" تماماً .. أسود شفاف .. و الولد مُهر يصّاعد .. الحشد أجساد برؤوس مدرسي تاريخ أو زنوج و سيارات فخيمة .. فاختلط صهيل الأفراس بقرقعة سيوف أسطورية .. و تنزّل صوت حينها أن " خيولاً شفافة و أمهاراً مهقاء لن تُخلق أبداً .....".

فبراير- مارس 2000

فانتازيا الدوائر

*" أحتمل المشقّات حتى القيود كمذنب .. لكّن كلمة الله لا تقيّد "

تيموثاوس 2 : 9

-1

يُثّبت سنّ قلمه في منتصف الورقة تماماً .. يصنع دائرة كبيرة رصاصية .. يملؤها بدوائر أصغر .. يرتكز بقدمه فوق إحداها ..ينتقل بقدمه الواحدة فوق الجميع .. يقفز في المنتصف تماماً ..

(ما دُمتم تحت غطاء الرب ، فستصنعكم كلماته كيفما أراد) .

-2

مئة و ثمانون يوماً ذاقت فيها تلك الدرجات السلمية جميع طبقات نعل حذائه الرياضي المتهالك .. خمسة طوابق صعوداً و هبوطاً .. يدور بين جميع غرف ذلك المشفى ذي المباني الخرسانية الكثيرة .. رائحة " السبرتو " النفّاذة تسيطر على المكان ..تنتشر بين أرجائه .. تدور على أنوف الجميع .. لا يستطيع التوقف و لو للحظة واحدة ليقوم بعملية تنفسه بشكل طبيعي .. صورة أبيه الراقد فوق سريره الحديدي ذي الأعمدة الصدئة ، تدفعه لبذل المزيد من الجهد في الصعود و الهبوط ،للحصول على الإمضاءات .. نظرات أبيه المنطفئة تدريجياً .. تأوهاته و صرخاته .. الكل يدفعه لمحاولة اللحاق بركب الإمضاءات المسرع ..

- الورق كله خِلص يا دكتور .. ممكن حضرتك تمضي ؟

صوت أنفاسه المضطربة المتلاحقة تجعل كل كلمة تستقل بذاتها .. ينظر له الطبيب شذراً .. يلوي عنقه بعيداً .. يداعب ذات الرداء الأبيض القصير جداً .. يتضاحكان ..

- ربنا يخليك يا دكتور ... أبويا بيصرّخ مِ الوجع ..

يخرج الطبيب من فمه نفخة هواء ساخنة .. يكاد يشعله بها .. يضع قلمه بين سبابته و إبهامه بِغِّلٍ و غيظ شديدين .. يكاد القلم يسقط هارباً من بين الإصبعين .. يحركه بسرعة فوق الورقة الأخيرة .. و كأنما يخشى احتكاكهما ..

- اطّمن يا با .. الورق كله .....

يئّز الجميع عرقاً .. هو و أبوه .. و أمه ذات الرداء البني الباهت الذي تعلوه دوائر صفراء كالحة ..

- إيه يا بني آدم .. انت جايب لنا جثة نعمل لها جلسة ؟؟!! دي مكانها الثلاجة تحت ..

عقربا الساعة يتعانقان .. في الانتظار .. يتعانق الجميع ملتفين في دائرة الانتظار اللانهائية .. يتباعد العقربان .. في الانتظار .. صراخ حاد .. كراسي خشبية يعلو ظهورها طلاء أبيض .. "فِراشة الحاج عبد النبي " .. أصوات قارئي القرآن بدت كريهة جداً في تلك اللحظة .. بكاء الصغار ..

- شق الجلاليب و المرمغة ف الأرض مجرد هيصه ...

- شلت الهم بدري يا ضنايا ..

* " إن عشنا فللرب نعيش ، و إن متنا فللرب نموت ، فإن عشنا و إن متنا فللرب نحن "

-3

يستيقظ وسط هذا البرد الخنجري .. يتأمل ذلك الجدار الأصفر الباهت .. يرسم فوقه فخذين شاهقي البياض لأنثى فرنسية يشتهيها .. يلمح آثار تأوهاتها فوق صدره .. يرقد في غرفته البدرومية .. يحلم و يكتب و يبكي .. واحد و عشرون عاماً مضت و هو يبكي .. و يكتب .. و يحلم .. يتنقل بين أكشاك الخبز و طوابير الجمعيات الاستهلاكية .. يحاول التوحش فلا يقدر .. إنه على علاقة حميمة بالهدوء .. و العدمية .. يجلد ذاته بسيخ حديدي ملتهب علّ المشانق تنساه أو تقول " قد مات هذا الولد القمحي .. المشاغب في صمت " .. يجذب صور " عبد الناصر " من فوق الحائط .. يكورها بيديه .. يقذفها أرضاً و يعتليها .. يترك شعيرات ذقنه السوداوية تنتشر ، و تستدير فوق وجهه كوباء سرطاني .. بدا سواد بنطاله الجينز الطويل ملتفاً حول سواد البلاطات المُشّربة بالمياه القذرة .. عميقاً مثله .. يحرق تلك الملاءة الصفراء المليئة ببقع لآثار عادته السرية .. لم يعد يقتسم لقيمات الخبز الفارغة مع أحد .. لم يعد يلتقط بمنخاره دخان سجائر الآخرين ، المنساب من أنوفهم و أفواههم .. لم يعد يدخل المساجد .. لم يعد يعبد الله .. يقسم أن يثأر من كل المخلوقات الجرثومية التي أهدرت كلماته الخاصة جداً .. تلك الكلمات التي اصطفت فوق لحمه العاري دوماً ...يبحث عن غلاف دفتر قديم من دفاتر " السجل المدني " التي أكلتها الفئران ؛ ليغطي كلماته .. لا يجد إلا الإمضاءات المحفورة في الفراغ .. بلا أغلفة ..

يلهث .. يتصبب عرقاً .. يلمس بأنامله الملتهبة تلك الصورة الملساء المعلقة على الحائط .. بوستر لطفل صغير لم يتجاوز الثانية من عمره بأي حال .. كُتب في أعلاها (why me?) .. الخلفية السوداء للبوستر تحتويه يغرق في أنينها .. حاملاً بين يديه ذلك الدوي الهائل للكلمات المعتلية رأس الطفل .. يتساءل .. من يعطيني القوة و الجبروت لأكون إلهاً يبدع كل نواميس الكون .. ليخرقها .. أو يلتحف بها ككرة أرضية .

* انجيل متى
نهاية ديسمبر 1998

حيثيات عودة المسيح

1-فلاش باك قبل الصعود ..

عَلّقوا له مشنقته عالية جداً .. قبل شروق الشمس .. و اجدلوا حبالها ببقايا التبغ المبصوق و أوراق الكتب الملساء العفنة ..فليس له أي رأي خاص به .. و لا يملك نُروداً أو أظرف صفراء يتذرع بها عند المواجهة .. فهو عادي جداً ...

2- احتمالات حدوث وقائع غير متفق عليها مسبقاً ..لم ترد على لسان المسيح ..

أرتاد الحانات و أشتهي النساء و أشرب شاياً بالقرنفل .. ألتقم ثدي الحياة على مرارته .. فلا أتقيأ إلا بلّورات الوجع و الفشل الكلوي .. أتباطأ بين زحامات المواصلات العامة و السنين الدراسية .. لا أهمس أو أصرخ أبداً .. فصوتي مثلي .. عاديٌ جداً .. ألتف بين ورق " البفرة " .. فأتصاعد كالجني المحبوس منذ القرن الما قبل الأول .. أبحث عن " يوتوبيا " الكتب الرخيصة .. فلا أجد إلا تلك الرغبات الثكلى .. قد كمنت في صدري .. ففقدت نقطة انطلاقها عند عتبات الاشتهاء .. حينها .. أفتتح عيّني " المعمصتين " .. أكدح بهما وسط الوجوه الصفراء الباهتة .. وسط الأدمغة المصابة بالسُل .. أتراجع .. عندها ؛ يشيع الجميع جثة ذلك القديس الهابط فوق أرض الأحلام .. أضغط هذا الزر الأبيض المُزيّن بنجوم زرقاء .. فتتوقف كل الصواريخ في الجو .. تهبط قبل "العراق " بسنتيمترات .. أُوقف " عاصفة الصحراء " و " ثعلبها " .. أُزيل بقعة الشاب الأمريكي من فوق ملابس الجميع .. أطير حاملاً سؤال ذباب الطريق .. " ما الفرق بين القديس و الملاك ؟! القديس أمريكي .. أمّا الملاك فمنيته أرض الميعاد "..

3- اتحاد كونفيدرالي بين جميع الحواريين .. أحداث لن تذكره كتب التاريخ ..

أن تنس وسط المهمشين و العاديين .. أن تتسكع بين الشوارع المليئة بالكلاكسات و بائعي الوهم و المذعورين ..فأنت عاديٌ جداً .. لا تقوى على تحطيم تلك النوافذ المغبشة بالحسرة و القمع .. فتتصعلك بين غبار الطريق و الأزقة المخذولة .. المفروشة بدماء الجميع .. المزدانة بجثث دافئة لتلك الكتب السماوية .. عندها .. ستعلن عصيانك لكل تعاليم الإنجيل و القرآن المدفونة تحت رمال " عاصفة الصحراء " .. و ستعلن أيضاً كرهك لرجال الشرطة و دكاترة الجامعة .. و شوارع "بلقاس" الطينية .. و ستُبغضني .. فأتّحد معك رغماً عنك .. و نغبش نوافذنا .. بحسرة أكبر .. و قمع أكثر عمقاً .. ساعتها سأنصحك بأن توقّع لي أوتوغرافاً فوق جثتك .. بأن تغرس مسامير تعاليمك السماوية ، وسط الشوارع المضطهدة تماماً ؛ فتفعل .....

يناير 1999

هيستيريا اللذة .. الموت .. المُدُن

(1)

أنا لا أملك شيئاً .. أنتم أخذتم نصف ما أملك .. أنتم لا تملكون نصف شيء .. أنا لا شيء .. أنتم لا تملكون نصفي .. أنا لا أملك نصفي .. أنا أملك نصف لا شيء ..

(2)

التحمت أطراف أصابعي بباطن كفي الرخو .. انحبس الدم في قبضتي و تصلّبت أعصاب يدي .. فضربت بعنف ظهر الباب الخشبي المرتفع حتى السماء .. الضارب في أعماق الأرض .. كان عرض الباب كعرض السماوات و الأرض و العرش .. منساباً في الآفاق منذ الأبد .. ملتحم ببعضه و متناسق .. فشددت أزر دماغي و خبطت طرف الباب .. لم ينفتح .. ازداد عناداً و قوة .. فأسندت ذقني بصدري و انتحبت كنساء المقابر .. ملتفتاً بجسدي .. ثم انسحبت جارّاً قدميّ و قد ازدادا ثِقَل جسدي أطناناً .. فانتشى ذلك القمر المخادع .. يحسبه الناظر نوراً ‘ و هو جبال .. تلال من الصخور و البُن و الظلام .. قد اقتبس ضوء الشمس فبدا كالذئب يرتدي سترة الجدة الحنون .. فازدادت انحناءتي و عُدتُ كالعرجون القديم .. أصبحت غريبة تلك الأغنيات عني .. سرّية مثل أغاني " الشيخ إمام" .. مباغتة كأغنيات " سيد درويش " .. صارت كالغابات غامضة .. و نسيتُ أني " أحب ألّف وِسْط المدن .. و فِ

الزحام ألاقي نفسي .. و أَحب أَكّن فِ ضلمة الأرصفة .. و نِفسي فِ سيجارة و كوباية شاي سُخنة و فكرة ..."

(3)

تذكرت شيئاً .. ذكّرني بشيء .. ذكّرني بشيء .. فذكرتُ ريب بالخير فلم يذكرني .. و كأن خطيئتي سترج الأرض رجّاً .. أو تبسّ الجبال بسّاً .. فتصبح هباءً منبثاً .. و أكون من أصحاب المشأمة .. فأي شؤم حل بي اليوم .. أنت المخطيء يا " تريزياس " فلم تحذرني .. و أنا لم أتَحَدْ الآلهة أو جهاز الشرطة .. لم أكفر بالقدر أو بالانتخابات .. فقط نظرت نحو الباب العظيم .. فذكّرتني تلك الفتحات الصغيرة المنتشرة في جسده بفتحات ثوبها العديدة .. المنتشرة من أعلى الثوب و حتى أسفله – عند منتصف فخذها تماماً - .. حيث كانت رأسي تجد متكأها .. حيث كانت مقعدتي الصغيرة تلتصق .. حيث كانت أمي و كنت طفلها .. حيث كانت تسمي لي الأشياء بأسمائها .. بينما تحيط الجوقة بنا .. فنبتذل حتى النخاع .. قد جاء النظّارة مبكرين و معهم أنصار السلام .. يجلسون في المسرح المكشوف ضاحكين من حركتي العرجاء ؛ و من بَلَهي .. و أنا أفعل ما أمرتني به يا " تريزياس " .. أحقق نبوءاتك المعتقة بالخل و الحزن .. أمّثل كالأبطال المحترفين .. و لا ريب أن العرض مثير .. توقّع شعائري يفيض به الجمهور الضاحك حتى الموت .. ذلك الجمهور لا يهمه رخاء المدينة .. فقط يهمه رخاء سادة المدينة .. و أنا أؤدي دوري في إتقان .. تتلبسني روح الهواة فأصرخ باحثاً عن سبب الطاعون .. مع أنني متأكد أن قاتل أبي ليس أحداً سواي .. هكذا تقتضي القواعد المسرحية .. صراع مقدس يجب إتمامه .. انفعال وحشي يعتريكِ يا " جوكستا " حين تقتلين نفسك ؛ و تخرجين عن النبوءة فتقتليننني .. و أنا أستمسك بأهداب " طِيبة " الطيبّة .. أرقص في صخب .. فيلتصق جسدي بالباب العالي .. أشرب حتى الثمالة .. فتمكثي يا " جوكستا " في العراء .. محمّلة بتلال الخبز و الخمر و بطاقات الاستفتاء .. ممتلئة عيناك بالكحل و القمع و بكاوي المعّسل .. فأبتسم .. تاركاً الموت يشرب قهوته في تلذذ .. و هو يخطو في هدوء نحو المدينة .. علّه يحترق من سكونها ...

ديسمبر 1999